قناة محبي الكتب على التليجرام

الإنسان وفقدان الاتزان بين الروح والمادة

تأليف اللواء عبدالحميد شرف

تقديم أحمد عبدالمعطى حجازى

سما

المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

الإنسان وفقدان الاتزان بين الروح والمادة

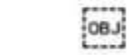

تأليف: اللواء عبد الحميد شرف

تقديم: أحمد عبدالمعطي حجازي

* الإنسان وفقدان الاتزان بين الروح والمادة
* تأليف: اللواء أركان حرب/ عبد الحميد شرف
* الطبعة: الأولى مارس 2014
* الإخراج الفني: ممتاز حسنين
* تصميم الغلاف: هنا إبراهيم
* إشراف عام: نجلاء قاسم

رقم الإيداع: 2838/ 2014

الترقيم الدولي: 978-977-6451-55-1

الناشر: سما للنشر والتوزيع

25 امتداد ولى العهد حدائق القبة

تليفون: 24517300 - 01271919100

Email: www-sama-publishing.com

publishing@sama-publishing.com

التوزيع: المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

80 ش طومان باي – الزيتون – القاهرة

تليفون: 24518068 - 01099998240

Email: aldawleah_group1@yahoo.com

Natheer Ahmad

يُحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء
من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية

مقدمة

إن فكرة الإنسان المثالي الذي يفعل الخير فقط لأنه خير ويرفض الشر فقط لأنه شر تجسدت فعلًا على مستوى بعض الأفراد العظام في عصور مختلفة وأماكن مختلفة، وكل هؤلاء الأفراد يجمعهم قاسم مشترك وحيد ألا وهو الاتزان في تعاملهم مع المادة والروح بين رجاحة العقل وسمو الأخلاق، وهو الطبيعة الإنسانية الأصلية، مزدوجة القطبية لتلائم الحياة المزدوجة أيضًا في عالم مادي جاد وعالم وجداني راقٍ.

وقد تابعنا هذا الاتزان عبر رحلة البشرية منذ ظهورها على الأرض، فوجدنا حالات متكررة فشا فيها الاتزان في جماعات أو مجتمعات صغيرة عاشت حياة متزنة بعض الوقت في تقدم مادي جاد وحياة وجدانية ودينية راقية، رغم صغر هذه الفترات الزمنية، ولكن للأسف لا يستمر ذلك طويلًا فسرعان ما يتم الالتفاف على المبادئ والقيم، وتطل الطبائع الحيوانية للسيطرة على الغير والتمييز بالباطل؛ فتنشب الحروب، وتُسفك الدماء، ويُتَاجر بالدين، ويُستغل الجهل، والاستيلاء على ما في يد الغير، والهيمنة السياسية والاقتصادية.. إلخ من مساوئ بشرية معروفة كل ذلك والتقدم المادي يزداد قوةً وجبروتًا وإشباعًا لحاجات البشر المادية حتى أرهق العقل البشري جراء لهثه وراء التقدم التكنولوچى المفيد منه وغير المفيد الداعم للحياة والمدمر لها، كل ذلك والإنسان المعاصر يفقد خصائصه الإنسانية رويدًا رويدًا؛ فلا حرية ولا شخصية ولا إرادة ولا إيمان قوي بجدوى الحياة، هذا هو الواقع المهين الذي ندعو للتخلص منه والعودة لطبيعة الإنسان السوية في اتزان بين العوالم المادية للبشر وعوالمهم الوجدانية الملائمة للحياة المزدوجة.

هذا الكتاب يتضمن دعوة يمكن أن يتبناها حكماء من شعوب العالم، وأقترح عليهم اسم الإنسانيين الجدد؛ لما بين هذه الدعوة وحركة الإنسانيين في بواكير عصر النهضة من تشابه؛ لإعادة نظرة شاملة في تعامل الإنسان المعاصر مع الحياة المزدوجة القطبيه.. وصولًا لعالم مادي جاد وعالم وجداني راقٍ.

الناشر

قناة محبي الكتب على التليجرام

تقديم

أنا أعرف اللواء عبد الحميد شرف مهندسًا متمكنًا من عمله، واسع الخيال، قادرًا على الابتكار. استطاع أن يقدم لنا خدمات جليلة ساعدتنا في استصلاح الأراضي الصحراوية وزراعتها، كما ساعدتنا في حرب الاستنزاف وتحقيق النصر الذي أحرزناه في حرب أكتوبر. لكني لم أكن أعرف أن له محاولات في الشعر والفكر جديرة بالقراءة، ومنها هذه الفصول التي كتبها حول االإنسان وفقدان الاتزان بين الروح والمادة.

وقد قرأت هذه الفصول باهتمام؛ لأن موضوعها مطروح علينا كما هو مطروح على غيرنا. فالمجتمعات الإنسانية الحديثة تعاني من الخلل الذي تتعرض له من بداية الثورة الصناعية وما سبقها ولحقها من ثورات علمية وتطورات فكرية وسياسية تراجع معها تأثير الدين والأخلاق المرتبطة به، واختل التوازن بين الروح والمادة، وبين المشاعر الإنسانية والتفكير الموضوعي. وحول هذه المشكلة ظهرت مئات المؤلفات والدراسات، وعُقدت عشرات الندوات التي عالج فيها الكُتَّاب والمفكرون والباحثون موضوعهم من جوانب متعددة.

بعضهم تحدث عن الخلل الذي أصاب الوجود الإنساني بسبب الإفراط في الاحتكام للمنطق العقلي والبحث وراء كل شيء وكل ظاهرة عن أسباب ملموسة مقنعة وإهمال الحاجات العاطفية التي تلبيها الفنون المختلفة كما نرى مثلًا في كتاب المفكر الفرنسي بول هازار أزمة الضمير الأوروبيب. ومنهم من ركَّز البحث على ما فعلته التكنولوچيا المتقدمة في الذين انخرطوا في حضارتها فتحولوا إلى كائنات اتقنيةب أو آلات حاسبة كما نجد في كتاب الباحث الأمريكي فيكتور فركس االإنسان التقني الأسطورة والواقعب. ومنهم من

تجاوز ما حدث ليتنبأ بما سوف يحدث. ومنهم من أفقدته كوارث الحاضر المتتابعة إيمانه بالمستقبل فارتدّ إلى الماضي وهرب من العقل إلى اللاعقل، واكتفى بأن يكون، ولم يعد يهمه أن يصير.

وفي هذه الفصول معالجة أخرى للموضوع، يحاول فيها صاحبها أن يثبت أن الاتزان بين الروح والمادة ليس مجرد حلم لا يتحقق إلا في المدن الفاضلة، بل هو إمكانية بشرية تحققت بالفعل في تجارب سابقة يقدم منها الصديق العزيز ثلاث تجارب حدثت في مصر القديمة، وفي مدينة الرسول صل الله عليه وسلم في زمن الخلفاء الراشدين، وفي ثورة الإنجليز على الحكم الملكي المستبد في القرن السابع عشر.

ولا شك في أن البشر لم يكفُّوا طوال تاريخهم عن محاولة الوصول إلى هذا الكمال المنشود. ولا شك في أن جماعات منهم اقتربت من هذا الكمال في بعض اللحظات، لكن تجاربها هذه لم تكن إلا خطوات في الطريق إلى غاية ستظل دائمًا أمامنا تحفزنا للتقدم، لكنها تبتعد كلما اقتربنا منها.

من هنا كنت أفضل أن يختار الكاتب لمعالجة موضوعه طريقًا من اثنين: إما أن يحدثنا نظريًّا عن هذا التوازن الذي ننشده بين الروح والمادة، وإما أن يحدثنا عن التجارب التي حاول فيها البشر أن يصلوا إلى هذا التوازن فساروا خطوات وظلت أمامهم خطوات. ولا أظن أننا نستطيع حَصْر هذه التجارب في ثلاث فقط، والدليل على هذا هو اللواء شرف نفسه الذي جمع نشاطه بين العلم والفن، العقل والقلب، الشعر والتكنولوچيا.

أحمد عبد المعطي حجازي

مقدمة

لماذا بعد كل ما حققته الحضارة المعاصرة من تقدم مادي وتقني واكتشافات مبهرة في حد ذاتها لم ينعكس ذلك إيجابًا على شعور الإنسان المعاصر بالسعادة والرضا والاطمئنان للمستقبل؟ بل إن مؤشرات مظاهر القلق وعدم الرضا والإحباط أصبحت هي القواسم المشتركة لشعوب الأرض، مع تفاوت النسب والدرجات بين الشعوب الفقيرة والغنية. ورغم ما لدى المجتمعات الغنية والمتوسطة من إمكانات إشباع حاجاتها المادية فإنها تعاني من عدم الرضا وخيبة الأمل في السعادة المتوقعة إلى جانب الملل من منظومة حياتها التي اختُزِلت في رحلة ذهاب للعمل في مركبة أو قطار ثم العمل ثم رحلة عودة مماثلة من العمل ثم النوم ثم الاستيقاظ للتكرار، وأخيرًا إجازة نهاية الأسبوع الصاخبة احتجاجًا في الغالب على شعوره بفقدان الحرية وانعدام الشخصية، كما أن هناك سؤالًا فرعيًّا له علاقة بالسؤال الأصلي ألا وهو: هل هذه المؤشرات السلبية كانت أقل في أزمنة سابقة في تاريخ البشرية، خاصة قبل القرن العشرين بحروبه الدامية التي راح ضحيتها أكثر من 60 مليونًا من البشر؟

ولماذا أصبح الإنسان المعاصر بعد الحرب العالمية الثانية والحروب المحلية العديدة أكثر عنفًا وقسوة وعدم رضا عن النفس وعن الغير أيضًا؟ هذا ما سوف يتم تناوله للبحث عن الأسباب الحقيقية التي أدت لهذا الواقع المهين للإنسان المعاصر كإنسان، ولا أزعم الوثوق من النجاح ولكنها محاولة.. وقد نجد أنفسنا مضطرين للبدء من أول السطر مع أول خطوة خطتها الجماعة البشرية مع ظهورها على كوكب الأرض، وزاعمين بأن الإنسان القديم والحديث له صفة أساسية يشترك فيها إنسان النياندرتال منذ سبعين ألف سنة وأي

إنسان معاصر في القرن الواحد والعشرين، هذه الصفة هي القطبية الثنائية للإنسان، وهي في نفس الوقت الصفة الأساسية للحياة: ثنائية العقل والوجدان، أو التفكير والتأمل، أو العلم والدين، والعالم الطبيعي وما وراء الطبيعة، وأخيرًا العالم الخارجي المادي والعالم الداخلي الوجداني، وهما عالمان لا يجمعهما أصل مشترك. هذان العالمان يتطوران طوال رحلة البشرية كلٌّ على حده وإن كان بينهما تأثر وتأثير.

وأرغم أن الاتزان بين ما يصل إليه التطور في العالمين يؤكد الاستقرار المجتمعي ويدفع مؤشرات المظاهر الإيجابية لسعادة الإنسان إلى أعلى، والعكس صحيح عند اختلال التوازن بين هذه الثنائية أو الازدواجية.

ونوجه العناية بأننا سوف نتناول التطور سواء المادي أو الروحي للإنسان، سلبًا وإيجابًا بقدر ما تعكسه هذه التطورات على شعور الإنسان بالسعادة والرضا والاطمئنان، كل ذلك في إطار احترام جميع العقائد الإنسانية سواء كانت أساطير وحكايات قديمة أو قصصًا دينية لأي من العقائد، أو وقائع مادية وحفريات مكتشفة. وكل ما سوف نتناوله هو وجهة نظر تحتمل الصواب أو الخطأ، خاصة ما يتعلق منها بتاريخ البشرية الموغل في القِدم، وقد تعامل الإنسان البدائي معها بنجاح منذ فجر التاريخ ثم تعرض لانتكاسات سنحاول تحليلها.

الدراسة تنقسم إلى ستة فصول: استعرضنا في الفصل الأول منها تعامل الإنسان البدائي مع الحياة المزدوجة القطبية بعفوية وكفاءة، وخلال بضع عشرات من آلاف السنين تطور عالم الإنسان المادي والوجداني بها حتى تبلور في صورة أكثر وضوحًا في العصر

الفرعونى القديم، واستمر هذا التطور كما سيأتي في الفصل الثاني حتى الدولة الفرعونية الوسطى التي شهدت في نهايتها الغزو الهكسوسي لمصر بأحداثه الخطيرة من مقاومة له ثم تغلب عليه في حرب تحرير عظيمة، كانت ركائزها المخزون الحضاري المصري الذي بلغ درجة عالية في الدولة الوسطى. ووقفت مصر بعد التحرر من الهكسوس على أعتاب إمبراطورية عظمى. وفي الفصل الثالث تم اعتبار ظهور العائلة الإبراهيمية حدثًا هامًّا من التطور الديني الإقليمي، حيث ظهرت الأديان الإبراهيمية الثلاثة تباعًا، وفي الفصل الرابع ثم توضيح أثر الدين الإسلامي في الحضارة الإنسانية، والسلبيات الحضارية التي حدثت للبشرية مثل الحروب الصليبية وتقييم آثارها. وفي الفصل الخامس تم التعرض للحضارة المعاصرة من حيث نشأتها وتطور العالم المادي والديني فيها، سواء عصر النهضة وما تلاه، ومن ثَمَّ إبراز سلبيات الحضارة المعاصرة التي تسببت في مقتل 100 مليون نسمة في قرن واحد وهو القرن العشرين، في حربين عالميتين وحروب محلية أخرى. وفي الفصل السادس تمت المقارنة بين ثلاث محاولات ناجحة لمجتمعات سابقة، كادت البشرية تقترب فيها من اتزان بين الروح والمادة، معطية أملًا في تحقيق محاولة رابعة لإنقاذ البشرية بعودة الإنسان لإنسانيته وحريته وإرادته وسعادته المفقودة.

المؤلف

الفصل الأول: عصر الإنسان البدائي

معظم التقديرات العلمية لظهور جماعة بشرية على وجه الأرض لا تتجاوز سبعين ألف سنة، وهي محل دراسات ونظريات مختلفة عن تطورها حتى العصر الحديث، وكلها نظريات غير يقينية، علاوة على فكرة الخلق المفاجئ بواسطة قوة عُليا وهي الله.

توجد نظرية الوجود البيولوجي الذي تطور عبر ملايين السنين حتى وصل إلى أرقى صوره وهي الإنسان، ونظرية ثالثة تقبل التطور البيولوجي الذي أدى إلى ظهور الإنسان الحديث مع تأكيد. هذه الأفكار على اختلافها لا تغير من واقع الحياة كما هي. فدراسة ما هو واقع. دون سيطرة الفكرة المسبقة قد يكون أجدى وأنفع؛ فمنذ ظهور الإنسان البدائي المعروف باسم االنياندرتالب واكتشاف الكهوف الأولى في أوروبا وشمال إفريقيا وجد الباحثون رسومًا لحيوانات ونبات ورسومات لبعض مقتنيات، ولأن هذه الكهوف ظلت مغمورة في الأرض عشرات الآلاف من السنين فقد احتفظت جدرانها بهذه الرسومات، حيث كان بعضها ملونًا يمثل بيئة الإنسان الأول ومعاصريه من حيوانات ونباتات. وآثار هذا الإنسان البدائي تشير إلى ازدواجية حياته، فهو يتعرف على الطبيعة من حوله ويتعامل معها للحفاظ على حياته والدفاع عن نفسه، وتأمين غذائه من صيد أو جمع ثمار، في نفس الوقت بدأ في المقارنة بينه وبين الكائنات الحية الأخرى، لأنه كان يشعر في داخله أنه ينتمي لشيء خارج هذه الطبيعة، شيء له علاقة بما وراء الطبيعة، فهذا الإنسان البدائي ينظر للسماء ويتأمل صورته على صفحه الماء وأحيانًا يرهف أذنيه لسماع تغريد الطيور ويقلدها.

وبالنسبة لعالم الإنسان الخارجي المادي المرتبط بحياته وغذائه

نجده يتبع قواعد منطقية، تربط المقدمات بالنتائج، عقلانية عالم لا يعرف الهزل أو المزاح، فقد لاحظ الإنسان البدائي الارتباط بين سفك الدماء ومفارقة الحياة في الحيوان والإنسان مجروحًا أو مقتولًا أو مذبوحًا، وأدرك أن هذا السائل الأحمر الذي يجري داخل أجساد الكائنات الحية هو سر حياتها فقدسه. وعندما لاحظ خروج الدم دوريًّا من أنثاه وتأمل انتفاخ بطن المرأة لفترة يتبعها خروج جنين حي منها، قدس الأنثى كواهبة للحياة، وقدس الدم باعتباره سر الحياة... ومن الطريف أنه بعد مرور عشرات الآلاف من السنين وربما المئات نجد آثارًا لفكرة تقديس الدم في بعض المجتمعات المعاصرة التي توجب بعض عاداتها تلطيخ العتبات الجديدة بالدماء دفعًا للشرور. وهذا يوضح كيف عبدت الجماعة البشرية في مناطق متعددة آلهة أنثويةب مثل االربة عشتارب في شمال شرق العراق، وإيزيس أو إزيت كما كان ينطقها المصري القديم، وأفروديت في شمال البحر المتوسط، واللات والعُزى ومناة في الجزيرة العربية التي بها بعض القبائل مؤنثة الأسماء مثل كندة وثعلبة وساعدة وأمية (وهي تصغير لكلمة أُمٍّ)؛ مما يدل على استمرار آثار العصر الأموي لفترة أطول عند العرب عندما كان هناك مطر وزراعة تقوم بها المرأة وربما كانت هي مكتشفتها.

مَارَس الإنسان البدائي في تعاملاته مع الطبيعة المحيطة به في عالمه الخارجي نشاطاته مطورًا آلاته وأساليب صيده بكفاءة؛ لتحسين ظروف حياته الشاقة في عالمه المادي، هذا الجانب من الحياة يمارسه الحيوان بكفاءة ولكن بذكاء أقل كثيرًا، أي اختلاف الدرجة فقط. وكان أول ما استخدمه الإنسان البدائي من أدوات في الحصول على الثمار هي العصا والأحجار، وشاركته في ذلك بعض الحيوانات العليا. ويشترك الإنسان والحيوان في كل العلاقات مع

الطبيعة؛ فلدى الحيوان شعور وذكاء ووسائل اتصال ورغبة في إشباع الحاجات، وهذا ما أدى إلى ظهور بعض أشكال الاقتصاد. ولكن هناك فوارق أساسية بين الإنسان والحيوان في إشباع الحاجات، فليس لدى الحيوان - ولو بشكل بدائي - شيء عن الدين أو السحر أو الفن أو المحظورات الأخلاقية إلى غير ذلك مما يميز الإنسان القديم والحديث... فالحيوان عندما يذهب للصيد يسلك سلوكًا منطقيًّا عقلانيًّا جدًّا في كل خطوة يخطوها حتى يحقق هدفه. كما أن مجتمع النحل، وهو يمثل أرقى تنظيم غير إنساني، نجده يطبق قواعد النفعية لصالح مجتمعه بموضوعية تامة؛ حيث يعامل أعضاءه الذين لا فائدة منهم بقسوة بالغة فيقذفهم خارج الخلية، بينما نجد غير ذلك في السلوك الإنساني مثل: حماية الضعيف وذوى الاحتياجات الخاصة، والحق في الحياة والتقدير والاهتمام. وعندما كان الصيادون البدائيون ينوون الخروج للصيد فإنهم وعائلاتهم يقومون بطقوس معينة ويرقصون، بل أحيانًا يصنعون نموذجًا لما ينوون صيده، هذه الإجراءات للتمني والرجاء من الغيب أن يوفقهم في الصيد. كما تفرد الإنسان بظاهرة التطلع للسماء وهي غريبة عن الحيوان، وتفسيرها المادي لايزال عصيًّا على أن تكون نتاجًا للتطور البيولوجي. ويقول الفرنسي هنرى سيمل بعد دراسته لرسوم لإنسان النياندرتال في بلاده: إن الحياة النفسية للإنسان البدائي والحديث لا تختلف إلا بقدر ضئيل؛ فكلاهما عانى هذا الدوار الميتافيزيقي، ومن الواضح أن هذا ليس خاضعًا لتطور بيولوجي على عكس ما ترسب اعتسافًا في حضارتنا المعاصرة من أن الإنسان ظهر صدفة نتيجة تطور بيولوجي عشوائي.

كانت أوروبا في صدر القرن العشرين تموج بالصراع بين الإيمان والإلحاد، حيث قام بعض العلماء الطبيعيين بالدفاع عن الإيمان

كفلسفة، مهاجمين الإلحاد بالتشكيك في أسانيد قد تبدو غاية في الموضوعية، مثل العالِم الطبيعي الفرنسي لاكونت، مؤلف كتاب (مصير الإنسان) الذي ركز جهوده في تبسيط علمي لنظرية االنشوء والارتقاءب، لم يرفضها تمامًا وإنما عدَّل فيها بحيث تكون ركائزها الثلاث: التكيف، الاختيار الطبيعي، الطفرات، وهي آليات للتطور وليس سببًا له، بمعنى أن وراءها غائية وأن عشوائية وجود الإنسان أقرب للخرافة، فقد تعرض لاكونت، خلال ذلك لسلسلة التطور البيولوجي للحياة وانتظامها، وعرض الكثير من الثقوب منها، بخلاف الحلقات المفقودة منها؛ مثل اعتبار أن أنواع الحياة البدائية مثل ذبابة الفاكهة التي تحتوي خلاياها على ثماني صبغيات (كروموزوم) بينما الإنسان بخلاياه 48 كروموزومًا يعتبر مثلًا تصاعديًّا في سلم التطور، وعندئذ قال العالِم الطبيعي لاكونت: لماذا لم يشيروا إلى شذوذ هذه القاعدة في سرطان البحر (الكابوريا) التي تحتوى خلاياه 200 كروموزوم. كما تعرض رياضيًّا للاتحاد العشوائي بين العناصر لإنتاج جزئ بروتيني مكون من أربع عناصر، وبه 2000 ذرة فقط، وأثبت أن ذلك يحتاج إلى زمن أطول بكثير من عمر الأرض المعروف بدقة معقولة الآن نحو 4000 مليون سنة ومادة تقارب مادة الكون كله، وهذه النقطة بالذات حققها عالِم آخر سويسري هو تشارلز يوجن جاي وقدر لذلك 10.243 بليون سنة؛ أي أكبر من ضعف عمر المجموعة الشمسية 4.6 بليون سنة. وكان نتيجة ذلك أن فكرة نشوء حياة بدائية على الأرض تطورت لتصبح إنسانًا أصبحت ضعيفة بل أقرب للخرافة، إلا أن العلماء من المدرسة الأخرى تقدموا بفكرة نشوء الحياة البدائية خارج الأرض ثم اكتملت على الأرض، المهم أن الغلو في لهجة الماديين قد انخفض كثيرًا.

نعود مرة أخرى لسلوك الإنسان البدائي وهو يمارس حياته في عالمه

بكفاءة، فنجده عندما يخلو بنفسه في فترة راحة من مجهوداته الشاقة في عالمه المادي الخارجي، يحاول التحرر من هذا العالم المادي الجاد وينشغل بعالم جواني بداخله غامض ليس له علاقة كبيرة بالعقلانية أو الموضوعية، فكأنه يتحرر من قواعد العالم الخارجي ويعبث قليلًا فيأتي بحركة من دون هدف، ومن هنا كان الرقص أقدم من الكلام، أو يقلد صوت طائر حتى نجح في إخراج الصفير بشفتيه أو من خلال قطعة من الغاب. أدرك الإنسان مبكرًا حاجته لكلا العالمين: الخارجي والجواني داخل نفسه، وتقبل هذه الازدواجية للعالمين اللذين لا ينتميان إطلاقًا لأصل مشترك. وبدأ الإنسان الأول في التطوير في كلا العالمين، ففي العالم المادي أصبح يطور أدواته وأساليب صيده واختراعاته الصغيرة المتتالية؛ لتحسين ظروف معيشته، والتغلب على الصعاب وشظف العيش، هذا الاتجاه المادي ذو صلة مباشرة بحياته اليومية المحكومة بالمنطق والعقلانية والموضوعية؛ لتحقيق أهداف محددة متصلة بالمصلحة المباشرة له ولبني جنسه. وكان من أهم الاختراعات الأولى العجلة والشادوف لرفع الماء، واللذان يعتبران نقلة حضارية مثل نقلة استخدام البرونز بدلًا من الأحجار في الآلات والأسلحة فيما بعد بعدة آلاف من السنين. أما على الجانب الروحي، فقد استحدث الإنسان البدائي بعض الطقوس لدفع الشرور وتمني الصيد الوفير وعبادات بسيطة، وعرف تقديم القرابين لقوى ما وراء الطبيعة؛ لتعاونه أو لترضى عنه، وظهر دور الساحر إلى جوار شيخ القبيلة، والساحر والكاهن كلاهما يعبر عن العالم الروحي الوجداني للإنسان.

حاول الإنسان البدائي إيجاد روابط بين الظواهر الكونية ونشاطه اليومي في عالمه المادي، فراقب الشمس والقمر والنجوم والرعد والبرق والأمطار والزلازل والبراكين، وأطلق لخياله العنان في

تفسيرات هذه القوى فوق الطبيعية، الأمر الذي أثار ترك بصمات عديدة على عالمه الوجداني والديني، وأرجع بعض المظاهر الكونية إلى غضب أو رضا قوى ما وراء الطبيعة عليه. وقد مرت بضع عشرات الألوف من السنين والإنسان البدائي يطور عالمه (المادي - الروحي - الوجداني - الديني - الفني) حتى كانت العشرة آلاف سنة الأخيرة تطور العالم المادي للإنسان تطورًا سريعًا. ولأني مصري فسوف أختار النموذج المصري في عصر ما قبل الأسرات والدولة القديمة الفرعونية مع بدء اكتمال مسار نهر النيل، كما يقول العالم المصري جمال حمدان أن ذلك تم منذ بضع عشرات الآلاف من السنين قبل الميلاد عندما اتصل نيل السودان بنيل مصر متجهًا في مساره الطويل جدًّا للبحر الأبيض المتوسط. في هذه الفترة المبكرة كانت ازدواجية العالم واضحة لحد كبير: اتجاه مادي يتطور في تعامل الإنسان مع الطبيعة؛ لتحقيق حياة مادية أفضل، واتجاه وجداني ديني وفني يتطور لإشباع الجانب الروحي الداخلي للإنسان ويحفظ توازنه، يلتمس في هذا الاتجاه صورًا من السعادة والألم والندم وعقاب الجسد، إلى جانب شيء من التسلية في طقوس احتفالية مفرحة أو جنائزية على حد سواء.

ويمكن ملاحظة أن استقرار المجتمعات رهين التوازن الدقيق، وأن عدم الاستقرار عادة يحدث عند طغيان تطور أحد العالمين على الآخر. في عصر ما قبل الأسرات، هذه الفترة المبكرة لا توجد لدينا معلومات دقيقة تمكننا من مناقشة درجة اتزان هذه الثنائية أو الازدواجية، ولكن نستطيع تأكيد وجود ثلاث محاولات لوحدة الدولة المصرية، نجحت الأخيرة بقيادة نارمر موحد القطرين عام 4777 ق.م، وربما كان فشل المحاولتين الأوليين نتيجة اختلافات في التطور الديني وتعدد آلهة الأقاليم إلى جانب أسباب آلهة أخرى.

في السبعة آلاف سنة الأخيرة، ظهرت في مصر الدولة الفرعونية القديمة التي امتدت من 4777 إلى 3335 ق.م أي نحو 1400 سنة، أعقبها عصر الاضمحلال الأول 3335 إلى 3005 ق.م بحضارتها المادية القوية (عصر بناة الأهرامات) والتقدم التقني في الروافع والكيمياء واستخراج المعادن وصياغتها، ويمكنا القول بأن ذروة التقدم المادي كان في عصر الأسرة الرابعة التي كان ثاني ملوكها خوفو العظيم الذي بنى أضخم صرح حجري حتى الآن، وهو الهرم الأكبر الذي لم نكتشف بعد كل أسراره. بدءًا من فكرة البناء وأسلوبه وعلاقاته المتعددة بالطبيعة (علاقته بالنجم القطب مثلًا) الأمر الذي يجعل فكرة أنه مجرد مقبرة لملك مقدس غير مقنعة وإنما الأقرب للعقل فكرة تجسيد لقوة الدولة في جميع المجالات وتخليدها على مر الزمن، مع إضافة لمسة وجدانية تمثلها تلك الفتحة بين أحد أوجهه وغرفة الملك لدخول الروح (الكا)، هذا مع توازن جيد لحياة وجدانية ودينية متطورة تؤمن بإله خالق وتؤمن بالبعث والحساب ثوابًا وعقابًا، مع وجود بعض الآلهة التخصصية الأخرى، مع طقوس تعبدية مثل تقديم القرابين، كما تطور الفن رسمًا ونحتًا وموسيقى.

ويمكن تلخيص الجانب الوجداني في الدولة القديمة في مرحلة الأساطير الأولى فيما قبل خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، حيث تميزت مصر بأسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس، عندما قام صراع بين الشر ويمثله الإله ست، وأوزوريس ممثلًا لإله الخير، وقامت ست بقتل أوزوريس وبعثرة أشلائه في أحراش الدلتا، وقامت الإله إيزيس بجمع الأشلاء واحتضنتها وحملت منه الإله حورس الذي ينتصر لأبيه برعاية أمه الإله إيزيس التي احتضنته حتى تمكّن من الثأر لأبيه أوزوريس، الذي أصبح إلهًا للعالم الآخر، وأصبح هو الإله الحارس للخير. إذا قارنا ذلك بآلهة سومر وحروبها

الضارية وآلهتها إناثًا وذكورًا تتناسل وتتحارب كما وصلتنا في إحدى صيغ ملحمة جلجامش، وكيف أن الإله مردوخ ذا الهرواة الغليظة شق الإله عشتار الربة إلى نصفين فكانا السماء والأرض. ويقارب ذلك أساطير آلهة الإغريق كما وصلت في إحدى صيغ الإلياذة لهيوميروس، وفيها صراعات عنيفة، وكأن الإنسان يعكس صورة من نزعاته ونزاعاته إلى السماء. ومن وجهة نظري أن الأسطورة المصرية أرقى في المضمون مع أنها الأقدم وأقرب لتحقيق إعلاء مظاهر الرضا والإشباع الروحي وانتصار الخير من دون الصور المرعبة في النماذج الأخرى، وكلاهما لاحق تاريخيًّا. وربما تكون الأساطير الهندية في هذا الشأن أقرب للمصرية (غير متأكد). وفي الغالب إن الاتزان الوجداني المصري في داخله كان أكثر إيجابية وأقل إثارة للقلق والحيرة الميتافيزيقية لدى المصري القديم، مما ساعد على عظمة الدولة المصرية القديمة.

ملاحظة: (طبيعة المناخ والتكوين الجغرافي لمصر كان له أثر في ذلك مقارنة بقسوة الطبيعة والمناخ في شمال شرق العراق واليونان).

ومن الجدير بالذكر أن المصري القديم ربط بين الإلهة إيزيس وأهم حدثٍ ينتظره في حياته وهو الفيضان الذي جعله دموع إيزيس التي تمثلها الأمطار المسببة لفيضان النيل، وتبدأ في الهطول 11 بؤنة (17 يونيو) من كل عام، ويسميها ليلة النقطة التي يختمر فيها العجين من دون خميرة، ولايزال المصري الحديث يحتفل بليلة النقطة 11 بؤنة.

عصر الاضمحلال الأول (3335 إلى 3005 ق.م):

استمرت حضارة الدولة القديمة (6 أسر فرعونية)، بما يعادل 1400 سنة، وهي بذلك حضارة ألفية عظيمة، ذات مؤسسات وهياكل وظيفية عديدة مليئة بعدد هائل من الموظفين والكهنة والعسكريين، مما جعل المراقبة ضعيفة؛ فتسلل الفساد الاقتصادي، حيث كانت الأرض موزعة على ثلاثة أقسام: ثلث للكهنة، وثلث للسلطة الحاكمة والعسكريين، وثلث للشعب الذي زاد مقداره لنحو 10 ملايين نسمة، مما أدى لقيام ثورات اجتماعية ونزاعات دينية شملت الأسرات: السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، وتعتبر أول ثورة شعبية في التاريخ البشري ضد نظام حكم وتمزقت البلاد إلى إمارات منفصلة وعمت الفوضي، واستقل كل إقليم بحكام صغار غير مسيطرين على الأمور، وتعددت رموز الآلهة. ويمكن القول بأن التطور انتكس بغياب القانون والنظام والأمن، وانتكس التطور الروحي والوجداني لفقدان ثقة الشعب في رءوس العالم الديني (الكهنة) وغياب قيمة العدل والقيم الأخلاقية الرفيعة، فحدثت الفوضى.

خلاصة الفصل الأول

عاشت الجماعات البشرية الأولى داخل الكهوف التي تم اكتشاف بعض منها في أوروبا وإفريقيا، وعاصرت في الغالب العصر الجليدي الأخير منذ أربعين ألف سنة، وارتحلت من مكان لآخر. والآثار المكتشفة تشير إلى أن الإنسان الأول أدرك مبكرًا اختلافه عن باقي الكائنات الحية، وأنه كما ينتمي إلى الأرض التي يعيش عليها ويموت فيها، فإن بعضًا منه ينتمي إلى خارج الطبيعة التي حوله، وبذلك أدرك ازدواجية الحياة في عالم مادي وعالم وجداني. ومع مرور آلاف السنين طوَّر الإنسان البدائي عالمه المادي كما طوَّر معتقداته الروحية في أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة من العالم، وأصبح لكل

جماعة عالم مادي وعالم وجداني. ولا يوجد أدلة كافية على قياس ذلك التطور بدقة حتى العصر الحجري القديم، ومنذ نحو 15 ألف سنة بدأت الجماعات البشرية، مع انحسار العصر المطير تتجه إلى البقاع النهرية في مصر والعراق وغيرها، وكانت الجماعات المصرية في الغالب هي الأسبق في تطوير عالمها المادي والوجداني، فكان عصر ما قبل الأسرات، ثم عصر الدولة القديمة الفرعونية التي بدأت عام 4777 ق.م حسب تقويم المؤرخ السمنودي مانيتون.

كان التطور المادي والوجداني (الديني) في عصر الدولة القديمة سريعًا جدًّا؛ حيث نشأت حضارة ألفية، وازدهار تقني في مختلف المجالات وكذلك اقتراب من التطور الصحيح للعالم الديني فآمنوا بالخالق والبعث والحساب وعودة الروح للجسد. وكان ذروة الاستقرار المجتمعي في الأسرة الرابعة، عصر بناة الأهرام، التي تعبر بصدق عن ازدواجية التفوق في العالم المادي والرقي في العالم الوجداني، ولاتزال الأهرام المعجزة الأولى في العالم حتى الآن.

قناة محبي الكتب على التليجرام

الفصل الثاني: الدولة الوسطى وحكم الهكسوس

تعتبر حقبة الدولة الوسطى من 3005 - 2565 (ق.م) من أزهى العصور المصرية، وشملت أسرتين؛ الحادية عشرة والثانية عشرة، ازدهرت فيها الحضارة المادية وترسخت نظم الدولة القوية كما ازدهرت فيها الآداب والفنون، واتسعت تجارة مصر الدولية. ومن الأعمال المهمة في هذا العصر حفر قناة سيزوستريس (سنوسرت الثالث) التي تصل النيل بالبحر الأحمر، كما أن تطور الآلات والصناعات كان ملحوظًا، فمثلًا في الدولة القديمة كانت الأوانى الفخارية الخشنة تُصنع داخل حفرة في الأرض، بينما تشكلها يد الصانع، أما في الأسرة الثانية عشرة فكان الفخارى يدير عجلة الفخار بيده اليسرى ويشكل الآنية بيده اليمنى ثم ينزعها ويصقل قاعدتها، وكانت الجرارات الكبيرة تُصنع أنصافًا منفصلة ثم تلصق بعد ذلك، وقد عُثر على نموذج من الزجاج عليه أشكال من الموزايكو الملون يرجع تاريخه للأسرة الثانية عشرة. أما الجانب الروحي والديني فكان مستقرًا في توافق مع نظم الدولة من سيادة القانون واحترامه وتعزيز القضاء لتحقيق العدل، وكانت الكهنة تحت رقابة الدولة يقومون بأداء الطقوس الجنائزية التي لا تنتهى بدفن الميت بل تستمر لأعوام طويلة لتقديم القرابين لروح المتوفي من خلال عقود مبرمة ومسجلة مسبقًا، وكمثال من الحياة الاجتماعية في مصر القديمة عقد مبرم بين كهنة أحد معابد أسيوط وبين الأمير جاب - حفا حاكم أسيوط في عهد الأسرة الثانية عشرة؛ وذلك لتقديم القرابين والبخور بعد وفاته، وأوقف على هذا العمل ضيعة بمواشيها وحدائقها وغلاتها، وقد نقش الأمير نصوص هذه العقود وعددها

(عشرة) على جدران مقبرته في جبل أسيوط. وكنظرة عامة في عصر هذه الدولة كان الاتزان بين عالم المصري المادي وعالمه الروحي والوجداني قائمًا بنسب معتدلة، وانعكس ذلك على استقرار المجتمع وزيادة عدد السكان، وازدهار الفن والأدب يعتبر مؤشرًا إيجابيًّا للشعور بالسعادة أو الرضا والاطمئنان للمستقبل.

وسوف نستعرض - فيما يلي - بعض مظاهر الحياة الدينية في مصر الفرعونية في الدولة الوسطى، حيث كان المصري القديم يحترم القانون، ويتحرى العدل، ويخاف من يوم الحساب بعد البعث، وما جاء في كتاب الموتى الشهير في باب إنكار الخطايا أو إعلان البراءة عند الحساب وذلك في مخمسات (خمس فقرات) تتناول الآتي:

السلوك العام:

فيقول المصري:

1- لم أُلحق ضررًا ما بأي إنسان.

2- ولم أعمل على إشقاء حيوان.

3- ولم أستبدل السيئة بالحسنة.

4- ولم أعرف الشر ولم أعمله.

5- ولم أقدم مصلحتي الخاصة على واجبي.

وعن العمل الصالح، يقول:

6- لم يشكني أحدٌ لرب الأسرة.

7- لم ألعن الآلهة.

8- لم أسعَ إلى إشقاء إنسان أو أتسبب في فَقْر أحد.

9- لم أرتكب ما يغضب الآلهة.

10- لم أحرِّض خادمًا على عصيان سيده.

11- لم أتسبب في مرض أحد.

12- لم أتسبب في بكاء أحد.

13- لم أقتل.

14- لم أحرِّض على قتل أحد.

15- لم أتسبب في حرمان إنسان من حق له.

وفي الواجبات الدينية:

16- لم أنقص من قرابين المعابد.

17- لم أسرق الفطائر المقدسة التي تقدم للآلهة.

18- لم أسلب خبز الموتى الأمجاد.

19- لم أرتكب الفاحشة في حرم الآلهة.

20- لم أدنس نفسي في حرم الآلهة.

وفي الأمانة:

21- لم أنقص كيل الحنطة.

22- لم أنقص المقياس راحة اليد: (مقياس كان مستعملًا في مصر

القديمة يبلغ سبع ذراع أي حوالي 7.5 سم).

23- لم أرتكب الغش في الحقول.

24- لم أطفف الميزان.

25- لم أتسبب في فقر أحد بالتلاعب في الميزان.

وفي احترام حقوق الآخرين:

26- لم أختطف اللبن من فم الرضيع.

27- لم أطرد الماشية من مراعيها.

28- لم أقتنص الطيور من رحاب الآلهة.

29- لم أصد السمك من بحيراتهم.

إنكار أعمال التخريب:

30- لم أصد الماء في موسم جريانه، ولم أقم سدًّا في مجراه.

31- لم أطفئ شعلة في وقت الحاجة إليها.

32- لم أخالف الحدود بتناول اللحوم في غير الأيام المخصصة لتناولها.

33- لم أطارد الماشية وغيرها من الحيوانات المقدسة.

34- لم أعترض على إرادة الله.

إن من يفحص المقولات السابقة، يلاحظ أن بعض المعاني قد تكررت، كما أن نظام الخماسيات محافظ عليه عدا الفقرة الخامسة

في احترام حقوق الآخرين التي أغفلها المترجمون لعدم فهمهم إياها، وأن الفقرتين (19-20) تشيران لعادات لم تكن متبعة في مصر ولكنها كانت متبعة في الشام وظلت متبعة حتى وقت ليس ببعيد. في بيت المقدس. 1

وقد كان القانون المصري يعد إنقاص الكيل فقرة 21 أي إنقاص المقاييس فقرة 22 سواء في الأقمشة أو الأراضي أو تقدير الضرائب كما في الفقرة 23 أو بخس الموازين فقرة (24-25) من جرائم الغش والتزوير الكبيرة. إن هذه المخمسات السبع كانت بمثابة محظورات بحكم الدين والقانون، وكان حكماء المصريين لهم نصائح وأمثال تصل لمرتبة المبادئ السامية للسلوك الإنساني، تتضمن أوامر ونواهٍ يلتزم بها الناس لترفرف عليهم السعادة والهناء في حالة اتباع السلوك القويم، ومن أشهر الحكماء بتاح حتب -من أواخر الدولة القديمة- يقول:

1 - لا تنغمس في مظاهر الثراء التي أنعم الله به عليك.
2 - إذا أردت أن تكون أعمالك محمودة فتجنب الشرور واحذر نزعات الجشع والطمع.
3 - لا يغرك غزارة علمك، وتحدث مع الجاهل والعالم، فإن العلم لا ساحل له ولا يستطيع أحد أن يبلغ مداه، وليس هناك أحد يحيط بكل شيء علمًا فيعرف كل ما ينفعه وما يضره.

وكثيرًا ما كان الحكام يدونون في مقابرهم ما كانوا يقومون به من أعمال البر والإحسان إلى رعاياهم راجين من الآلهة تقديرها ومثوبتهم عليها. ومن أمثال ذلك قول أحدهم:

لقد أعطيت الخبز للجائع والكساء للعاري، وأفسحت مكانًا في زورقي

لأولئك الذين لا يستطيعون العبور لأمر من الأمور، ولقد كنت أبًا لكل يتيم، وزوجًا لكل أرملة، وحِمًى من الريح الصرصر للمقرورين، وجار اللاجئين وأمانًا للخائفين.. وكنت أتكلم بالخير،.. ولقد جمعت مالي بالطرق المشروعة العادلة.

ومن أقوال آخر:

عندما ظل النيل منخفضًا خمسة وعشرين عامًا، ولم تكن مياهه تفى أراضي الإقليم الذي كنت أحكمه، استوردت لأهله الحنطة من الجنوب في أثناء تلك السنين العجاف، فلم يحل لذلك بربوعه جوع ولا بؤس ولا شقاء حتى جاءت السنون الخضر في أثر فيضانات النيل الغامرة.. ولقد كنت أطعم الأطفال بيدي وأواسي الأرامل، ولم أترك في عهدي فقرًا بائسًا محرومًا. ولقد عملت جاهدًا على كسب محبة الناس بالحق ليعلو بينهم ذكري وينوهون بشأني، وأجازى على أعمالي الخيرة في الآخرة.

وهذا يدل على أن الوازع الديني لإرضاء الآلهة كان السبب المعترف به للقيام بعمل الخير.

ولقد كان الشعور بالعدالة بين الناس قويًّا عند المصريين القدماء، وأن كلمة امعاتب لم يكن معناها العدالة المعنوية فحسب؛ بل كانت تدل على العدالة العملية. ولم يكن يكتفي بمعرفة الحق واتباعه ولكن كان ينتظر ممن يعنيهم الأمر إظهار المودة والعطف على من يستحقونها.

ومن أقوالهم في ذلك:

إذا كنت قاضيًا فرحب بالاستماع إلى من يتقدم إليك بظلامة،

وشجعه على أن يفضي إليك بما عنده، ودعه يفصح لك عما في قلبه، وأن لا يشك في وجه وإظهار العطف عليه يحملانه على قول الصدق والاعتراف بالحق ولو كان في غير مصلحته!.. وإن من سمو الأخلاق وحسن التربية الإصغاء له في حلم وسماحة وعطف.

ولم يكن ثمة أدعى لحسن نية المصريين القدماء في كل العصور وطاعتهم لأولى الأمر منهم، والعمل بنصائح حكمائهم من الحكم بينهم بالعدل والقسطاس وإعطاء كل ذي حق حقه.

ولقد كان من نصائح ملوك الأسرة الثامنة عشرة لوزرائهم حينما كانوا يتولون مهام مناصبهم التزام العدل المطلق بين الناس جميعًا! لا فرق بين غني وفقير ومالك ومملوك!، وألَّا يمالئوا الأغنياء؛ لأن الناس إذا ما اختصموا سواسية، وأن الميل إلى أحد المختصمين رجس عند الآلهة.

ولقد كان التفاني في التمسك بالصدق شعار إخناتون 2 الذي أضاف إلى ألقابه، الجملة الآتية االذي يحيا في الصدق وللصدقب وقد أولى المصريون التعليم - خاصة تعليم الأطفال - عناية فائقة، وكان أطفال الطبقات الراقية يذهبون إلى مدرسة الحضانة الملحقة بالقصر الملكي، حيث يختلطون بأبناء الأمراء والنبلاء تحت إشراف هيئة كبيرة العدد من الوصيفات، وعندما تكبر الأطفال يخصص لهم معلمون كان يُطلق عليهم الآباء المربون، وقد جرى العرف في عصر الأسرة التاسعة عشرة على أن جميع الأطفال الذين يولدون في يوم ميلاد ولي العهد لهم الحق في التنشئة معه في القصر الملكي، وقد تكون علة ذلك أنهم يشاركونه نفس الطالع، وقد عُثر على إحصاء لهؤلاء الأطفال يبلغون فيه 1700 طفل، وهو رقم صحيح لحد كبير إذا علمنا أن نسبة المواليد في هذا العصر كانت 60 في الألف وأن ربع

هذا العدد يموت قبل بلوغ سن التعليم، وبحسابات الإحصاء وإدخال نسب عقم النساء يكون عدد سكان مصر آنذاك 14 مليون نسمة3.

في نهاية الدولة الوسطى، انقسمت الدولة إلى دولتين: إحداهما في الوجه البحري تحكمها الأسرة الرابعة عشرة، والثانية في الوجه القبلي وتحكمها الأسرة الثالثة عشرة وأطلق المؤرخون على هذه الفترة فترة الاضمحلال الثاني (2565 إلى 1928 ق.م) وأعتقد أنه لا مقارنة بين هذا العصر وعصر الاضمحلال الأول الثوري، حيث كان ضعف الدولة هذه المرة تدريجيًّا خاصة في الأسرة الرابعة عشرة في الوجه البحري؛ حيث كان الملوك ضعفاء إزاء الأمراء الذين استقل البعض منهم في دويلات صغيرة، الأمر الذي أدى إلى غزو الهكسوس في أواخر الأسرة الرابعة عشرة.

لقد استعرضنا حتى الآن النموذج المصري حتى الدولة الوسطى. وحفاظًا على الهدف من هذه الدراسة عن الاتزان بين عالم الإنسان المادي والروحي، فسنكتفي بهذا القدر من النموذج المصري وسنعود إليه في الفصل الثالث عند الحديث عن التطور الروحي والديني الذي أحدثته العائلة الإبراهيمية، مع محاولة معرفة زمن دخولها إلى مصر (النبي يعقوب وأولاده): هل كان ذلك خلال عهد الهكسوس (الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة) مع ملاحظة أن الأسرة السابعة عشرة كانت متوافقة زمنيًّا معهما، ولكنها كانت تحكم من طيبة كأسرة مصرية خالصة، أو دخلت العائلة الإبراهيمية بعد ذلك؟ طرد الهكسوس في عصر الأسرة الثامنة عشرة ومتى كان خروج العبرانيين من مصر هل كان في الأسرة الثامنة عشرة أم في الأسرة التاسعة عشرة؟ وقد لاقينا في ذلك صعابًا خلال الدراسة، لكننا التزمنا بأمرين:

- **الأول**: التعامل مع تاريخ المؤرخ المصري السمنودي مانيتون الذي قسم الأسرات إلى 31 أسرة والتاريخ الفرعوني، وهو الأمر السائد في المعاهد التعليمية، الذي قسم الأسر إلى 30 فقط، ثم التعامل مع التاريخ الديني سواء ما ذكر في العهد القديم (الكتاب المقدس) وما جاء تلميحًا في القرآن الكريم.
- **الثاني**: التعامل مع الآثار المادية مثل جدارية منبتاح ابن رمسيس الثاني التي ورد فيها ذكر كلمة هبرو صراحة (عبراني) مع ذكر تأديب العبرانيين في وطنهم أو تسجيل هجوم الملك شيشينق الأول الأسرة 22 على بيت المقدس في عهد ابن النبي سليمان (بالعام) بعد حكمه 5 سنوات، كذلك تاريخ سبي بني إسرائيل من فلسطين المرتبط بالغزو الفارسى.

لكن رغم ما ذكرته يحتاج الموضوع لدراسة من الآثاريين على مستوى عالٍ لحسم الأمر دون النظر لأي حساسيات دينية أو سياسية، ولست مؤهلًا لهذا المستوى من الدراسة إلا بقدر يسير بمثل وجهة نظر قد تصيب وقد تخطئ بأن دخول العائلة الإبراهيمية إلى مصر آمنين كان في العصر الهكسوسي، وأن اضطهاد العبرانيين في مصر كان خلال الأسرة الثامنة عشرة وأرجح الفرعون أمنحتب الثالث؛ لذلك سوف نتناول عصر الهكسوس الذي يكتنفه الغموض لما له علاقة بالهدف من الدراسة.

حكم الهكسوس:

الهكسوس شعوب آسيوية مختلطة، انتهزت ضعف الأسرة الرابعة عشرة الحاكمة في الدلتا، وغزت مصر بدخولها عبر الحدود الشمالية الشرقية قادمين من الشام بأعداد كبيرة. وأجمع المؤرخون على أنهم

ساميون ولكن ليسوا شعبًا واحدًا (أخلاط)، ومعبوداتهم سامية مثل الإله بعل وسيطروا على مصر تدريجيًّا، رغم المقاومة التي قام بها المصـريون إزاء قيـام الهكسـوس بحـرق المـدن وتخـريب المعابـد المصرية، لكن الهكسوس تمكنوا من إقامة عاصمة أطلقوا عليها اسم زوان التي كانت تُعرف باسم أورايس، وتضمنت فترة حكمهم الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والأورايسب هكسوسية حكمت حكمًا مباشرًا أحيانًا وبالوكالة أحيانًا أخرى، وكانت تحكم الدلتا والصعيد الأوسط، فالحكم المستقر في الدلتا وحتى وسط الصعيد لم يتجـاوز 150 عـامًا، وأسماء ملـوك الأسـرتين: الخامسـة عشـرة والسادسة عشرة غير معروفة بدقة ولكن توجد بعض المعلومات، مثل أن ثالث ملوك الأسرة الخامسة عشرة كان اسمه خيان (1600 ق.م) وفـي عـهده دخـل مصـر النبـي يعقوب وأولاده، وقـد قـام الهكسـوس أثنـاء دخولهم الـدلتا بـأعمال سـلب ونـهب تصـدى لـها المصريون في مقاومة شرسة وقد جاء الهكسوس بعقائدهم السامية وآلهة لا يعرفها المصريون مثل الإله بعل وعانة وأنانا.

تغلـب الهكسـوس نتيجـة استخدامهم تكنولوجيا عسكرية لم تكن معروفـة لـدى المصريين، مثل: استخدام الخيول في جرّ العربات، وبعض الأسلحة المتطورة مثل الأقواس المركبة والسيوف المنحنية، وكـانت أكثـر صـلابة ولم يعرف المصريون الحصان إلا بعد هجوم الهكسـوس. وكـانت القـوات المصـرية مشـاة فقـط ومـع ذلك كانت المقاومة شرسة مع الدوافع الدينية المصرية. والدليل على استنزاف قوة الهكسوس تواصلهم أكثر من مرة مع مملكة كوش في شمال السودان وحثهم بل رجائهم وإغرائهم بالهجوم على جنوب الوادي الذي تحكمه الأسرة السابعة عشرة المصرية؛ وذلك لتخفيف الضغط عليهم أثناء معركة التحرير التي قادها ملوك الأسرة السابعة عشرة

من طيبة (1783 - 1517 ق.م) هذه الأسرة غير معروف كل ملوكها.

ولكن الملك الذي بدأ حركة التحرير هو سقنن رع وزوجته الملكة تي نحو (1580 ق.م) وحقق سقنن رع بعض النجاح، ولكنه سقط شهيدًا (1575 ق.م) وخلفه ابنه الأكبر كاموس بتشجيع من والدته الملكة تي التي تبرعت بكل حليها للمجهود الحربي وتجهيز الجيش وتدريبه.

استطاع كاموس خلال عشر سنوات من تحقيق انتصارات واضحة على الهكسوس، وتتحدث النصوص القديمة عن معركة بحرية (نيلية) قرب عاصمة الهكسوس، استولى فيها الملك كامس على ثلاثمائة مركب مصنوعة من خشب الأرز مشحونة بالأسلحة والذهب والفضة والمؤن. كما تتحدث عن بطشه بمن كان يتعاون أو يهادن العدو من المصريين وغير المصريين (في الغالب العبرانيين). الحقيقة أن التاريخ المصري في هذه الفترة يكتنفه الكثير من الغموض، ولكن الشيء المؤكد أن الأسرة الثالثة عشرة أسرة مصرية، وقاومت الهكسوس، واحتفظت بجنوب الوادي (طيبة وما يليها) وكانت منضغطة بين الهكسوس في الشمال ومملكة كوش في الجنوب وغير معروف كل ملوكها، وقد أعقبتها الأسرة السابعة عشرة، وأيضًا غير معروف كل ملوكها، ولكن المؤكد أن بداية حرب التحرير بدأت مع ثاني أو ثالث ملك من الأسرة السابعة عشرة التي يحمل فيها اسم سقنن رع ملكان، والثاني منهما هو الذي بدأ حرب التحرير عام (1580 ق.م) واستشهد بعد أن حقق بعض الانتصارات على الهكسوس ودفعهم شمالًا، أما ابنه كاموس فقد حكم عشر سنوات وهو الذي هاجم عاصمة الهكسوس في شرق الدلتا زوان ودمر جيشهم، ولكن سقط شهيدًا أما أحمس فهو الذي طاردهم خارج القطر المصري، ولاحقهم في فلسطين، وأسس أسرة جديدة هو أول ملوكها، وهي الأسرة الثامنة عشرة إلى أن حققت أكبر إمبراطورية

مصرية في عهد تحتمس الثالث.

فالجدير بالذكر، حالة المجتمع المصري خلال حرب التحرير في الأسرة السابعة عشرة، فقد توحدت الدولة والكهنة وغمر الناس شعور جارف بوجوب التضحية والفداء والتمسك بالقيم الأخلاقية المصرية، وفترة التحرير، وهي نحو ثلاثين عامًا (1580 - 1550تق.م)، كان المجتمع كله متفاعل مع حدث التحرير والرغبة في تحقيق النصر، وهنا تبرز ركائز هذه النهضة العارمة وهي وحدة الدولة والدين، إعلاء القيم الأخلاقية القدوة المتمثلة في القدرة على التضحية والفداء، الرغبة في بناء القوة اللازمة للتقدم. هذه الحالة التي استمرت ثلاثين عامًا فقط، وهي التي مهدت لوضع مصر على أعتاب أكبر إمبراطورية مصرية في الأسرة الثامنة عشرة.

وفي مثل هذه الفترات البناءة في تاريخ الشعوب، يسمو السلوك الأخلاقي لأفراد الشعب أثناء أداء واجبه الوطني، وهنا يكون الاتزان بين عالم الإنسان المادي والوجداني حقيقيًّا.

خلاصة الفصل الثاني

إن الفترة التي أعقبت الدولة الوسطى، وانقسام مصر إلى دولتين مع ضعف تدريجي في القوى المادية وخاصة في الأسرة الرابعة عشرة الحاكمة في الدلتا قد أدى لغزو الهكسوس الساميين لها، ودعم مقاومتها مقاومة شرسة فإنها خضعت في النهاية لحكم الهكسوس، كل الدلتا وثلثا الصعيد - شهدت اشتعال روح المقاومة في جنوب الوادي تحت حكم (الأسرة الثالثة عشرة)، وصمودها نحو مائة عام ضد عدو غاصب يحاول فرض معتقدات دينية غريبة على الشعب المصري، استندت هذه المقاومة على مخزون حضارة الدولة الوسطى

خاصة في تطورها الوجداني والروحي الذي بلغ سموًّا كبيرًا نحو المعتقدات الصحيحة: إله خالق، بعث، حياة أخرى، حساب عن أعمال الدنيا، قيم أخلاقية مجتمعية رائعة. فعندما يبرئ المصري نفسه في يوم الحساب من أنه لم يفضل مصلحته الخاصة على واجباته (المخمسة رقم 5) أو لم يتسبب في حرمان أحد من حق له (المخمسة 15) راجع أيها القارئ الكريم المستوى القيمي للإنسان المصري في هذه الفترة. فإذا اجتمع له قيادة وطنية كالملكة تي التي باعت حليها الخاصة لتجهيز وإعادة تسليح الجيش ثم تدعو مع زوجها لحرب التحرير (1580 ق.م) وتصبح زوجة شهيد وأم الشهيد مثالًا للتضحية والفداء للوطن. علينا أن نتذكر أن التضحية والفداء أحد المميزات الرئيسة للإنسان على باقى الكائنات الحية التي لا تعرف التضحية في سبيل مبدأ عام ولا تخضع للتطور البيولوجي.

لذلك فهي أحد أركان العالم الوجداني الداخلي للإنسان، كان المجتمع المصري في فترة الأسرة الثالثة عشرة فترة الصمود والتدبر والاستعداد المادي والحشد المعنوي ثم كانت الأسرة السابعة عشرة فترة التحرير والانطلاق بمخزون المجتمع الوجداني والديني الموروث من الدولة الوسطى إلى جانب التطور المادي من تنظيم وتطوير الأسلحة والأساطيل حتى تم النصر ووقفت مصر على أعتاب الإمبراطورية العظمى. فلو تأملنا مؤشرات ومظاهر الرضا والشعور بالسعادة والاطمئنان للمستقبل والرضا عن النفس وغير الداخل هذا المجتمع. ألا تعتقد أن هذه المؤشرات كانت إيجابية؟ إن صورًا شبيهة معاصرة، منها استدعاء المخزون الحضاري المصري مع يسير من الاختلاف، فمثلًا اسأل أباك أو أخاك الأكبر عن حرب الاستنزاف ألم تكن شبيهة بالأسرة الثالثة عشرة ثم حرب أكتوبر والانطلاق بعد الإعداد ألا يمت بشبه لفترة الأسرة السابعة عشرة أم

ترى غير ما أراه واضحًا؟

الهوامش

1 كانت بعض المعابد في الشام وبلاد النهرين بها نظام عاهرات المعابد (الحياة الاجتماعية في مصر صفحة 146).

2 إخناتون أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة (أمنحتب الرابع وهو أول من نادى بالتوحيد).

3 كتاب الحالة الاجتماعية في مصر القديمة، ص (231).

قناة محبي الكتب على التليجرام

الفصل الثالث: العائلة الإبراهيمية وظهور الأديان السماوية الثلاثة

دخل النبي يعقوب وأولاده (الأسباط) مصر آمنين نحو عام (1600 ق.م) في عهد الأسرة الخامسة عشرة الهكسوسية، وكان عددهم وذويهم سبعين نفسًا (مراجع دينية)، وكان النبي يوسف -عليه السلام- وزيرًا لملك مصر آنذاك، وفي بعض النصوص الخاصة بالأسرة الخامسة عشرة يوجد ملك بالوكالة اسمه فلافيو يوسفوس، والظاهر أن اسم يوسفوس كان شائعًا في هذا العصر. كما يجدر الإشارة في القرآن الكريم عن تسمية حاكم مصر بالملك وليس بالفرعون كما في قصة موسى -عليه السلام- ويعتبر ذلك قرينة أن النبي يوسف -عليه السلام- كان في عهد الهكسوس، أما موسى -عليه السلام- فكان في عهد أسرة فرعونية بعد طرد الهكسوس.

في أحد النصوص الخاصة بآخر ملوك الأسرة السابعة عشرة الفرعون كاموس يتحدث عن إلقاء القبض على المتعاونين والمهادنين للهكسوس من المصريين وغيرهم، وأتساءل مَن هؤلاء الغير؟ في الغالب هم العبرانيون الذين حصلوا على امتيازات مادية في عهد يوسف -عليه السلام-، وقد انتهى المؤرخون والآثاريون بالنسبة لفرعون موسى إلى فريقين: الأول يعتمد أساسًا على الآثار والنصوص المادية والعلمية، ويرجحون الفرعون أمنحتب الثالث في الأسرة الثامنة عشرة (وأبو أمنحتب الرابع الذي سمى نفسه فيما بعد إخناتون)، والفريق الثاني يرجح رمسيس الثاني في الأسرة التاسعة عشرة معتمدين على النصوص الدينية في العهد القديم والمؤشرات المادية التي تتوافق معها.

الجدير بالذكر أن كليهما حكم فترة طويلة تسمح بالتوافق مع القصص الديني لموسى -عليه السلام-، وكلاهما حكم من طيبة في جنوب الوادي، والعبرانيون كانوا يتمركزون في شرق الدلتا، وكلاهما له مومياء مكتشفة ومقبرة معروفة، أما لماذا لا نجد نصًّا واضحًا لواقعة خروج بني إسرائيل من مصر.. فلأن المصريين في العهود الفرعونية كانوا لا يسجلون إلا أمجادهم ويتجنبون ذِكر أي موقف يظهر الفرعون فيه في موقف ضعف (مثل حادثة الغرق).

لكن المجمع عليه أن أمنحتب الرابع ابن أمنحتب الثالث قام بما يشبه الانقلاب الديني؛ عندما أعلن عن دعوة التوحيد المصرية وسمى نفسه إخناتون، واضطهد كهنة آمون وشطب أسماء الآلهة الأخرى غير إله واحد هو آتون، ولا خلاف على فترة حكمه بعد أبيه، فإذا كان والده أمنحتب الثالث هو فرعون موسى -عليه السلام- يمكننا القول بأن إخناتون تأثر بدعوة موسى -عليه السلام- أما إذا كان فرعون موسى رمسيس الثاني في الأسرة التاسعة عشرة فيمكن أن نقول إن موسى -عليه السلام- وهو مصري الثقافة تمامًا حيث تربى في القصر الفرعوني- تأثر باتباع إخناتون أو البقية الباقية منهم؛ حيث تم اضطهاد أتباع إخناتون الموحدين بعد موته وسيطرة كهنة آمون على البلاد كما كانوا من قبل، إلا أن الفاصل الزمني قد يسمح ببقية من الأتباع المخلصين للتوحيد تأثر بهم موسى -عليه السلام- في عهد رمسيس الثاني (وجهة نظر) ولكننا نؤكد ضرورة وجود علاقة ما بين دعوة إخناتون للتوحيد ودعوة موسى -عليه السلام- للتوحيد بغض النظر عمن هو فرعون موسى.

خرج بنو إسرائيل من مصر سواء في عصر الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة ما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وعبروا إلى الشرق بقيادة النبي موسى -عليه السلام- وظلوا في

سيناء أربعين عامًا (مراجع دينية) قبل أن يدخلوا الأراضي المقدسة بعد وفاة النبي موسى -عليه السلام- الذي لم تُعرف مقبرته في سيناء. ومن الحقائق المسلَّم بها اضطهاد بني إسرائيل في مصر بعد طرد الهكسوس حتى خروجهم من مصر. المهم أن التطور الوجداني الديني الذي أحدثته اليهودية كان عميقًا وبداية لأحداث دينية خطيرة وأحداث مأسوية وحروب وسبي وتدمير عدة مرات في الأراضي الفلسطينية (الأرض المقدسة) ومشاكل متتالية.

جاءت اليهودية بالتوحيد والوصايا العشر والشريعة، وانشغل أنبياء بني إسرائيل (أربعة وعشرون نبيًّا) بتطبيق الشرائع على واقع الحياة الإنسانية في تفاصيل التفاصيل بهدف إقامة العدل والحق في الدنيا على أرض الواقع من دون ذكر للبعث أو الخلود أو جنة المأوى، وكان الهدف هو تحقيق الجنة على الأرض عندما يأتي المسيح المنتقم فيقتل كل الأشرار ويقيم الحق والعدل في الأرض. نلاحظ هنا أن التركيز في الدعوة على الجانب الحياتى المادي للمجتمع من دون أي وجدانيات روحية باستثناء مزامير داود -عليه السلام- وما جاء في سفر أيوب.

ومنذ خروج بني إسرئيل من مصر وحتى ظهور المسيح، لم تشهد الأراضي المقدسة والشعب اليهودي أي استقرار لمدة طويلة، فقد انقسمت مبكرًا الدولة اليهودية (يهوذا والسمرا) وتعددت الملوك الصغار وصراعاتهم السياسية المتصلة، ثم السبي الفارسي وتخريب بيت المقدس الأول، ثم احتلال الرومان والتخريب الثاني لبيت المقدس، وما بين ذلك من غزوات مصرية. نلاحظ أن الاستقرار ربما كان في مملكة داود وسليمان -عليهما السلام- وذلك للبعد الروحي والوجداني الذي أضافاه للعقيدة اليهودية شبه المادية، ثم عاد المجتمع الإسرائيلي لحالة عدم الاستقرار حتى ظهور المسيح -عليه

السلام- فهل حقق هذا المجتمع لأفراده طوال هذه الفترة مؤشرات ومظاهر إيجابية للشعور بالسعادة والاطمئنان والرضا عن النفس والغير؟ أعتقد أن الإجابه ب الاب هي الغالبة؛ وذلك مع غياب الاتزان بين التطور المادي والتطور الروحي الوجداني.

ألا أنه يجدر الإشارة إلى أن الجماعات اليهودية أسهمت إيجابيًّا في الحضارة الإسلامية في جانبها المادي الحضاري في الطب والعلم والإدارة كذلك في الحضارة المعاصرة. والمدقق في التاريخ اليهودي في عصر الشتات يلاحظ تجمعهم في الحواضر المزدهرة والمتقدمة ماديًّا مثل: الإسكندرية قديمًا وانطاكية والمقدس، ثم في قرطبة وبغداد، ثم في إسطنبول، ثم أمستردام، ثم لندن، ثم نيويورك. وأعلام النابهين منهم كثر في المجالات العلمية والعملية وبدرجة أقل كثيرًا في الوجدانيات والفنون عمومًا، فكارل ماركس مؤسس الاشتراكية العملية يهودي - لينين مؤسس الاتحاد السوفيتي يهودي - ودزرائيلي رئيس وزراء بريطانا العظمى في الحرب العالمية الأولى يهودي - أينشتاين العظيم يهودي؛ أي إن إسهامهم في البناء الحضاري المادي لا يمكن إنكاره في معظم الأنشطة العلمية والعملية، وأنهم رغم سوء معاملة أوروبا المسيحية لهم في مختلف العصور (لم يحظَ اليهودي بحق المواطنة في فرنسا إلا في عهد نابليون بونابرت في القرن التاسع عشر) أسهموا في البناء المادي الحضاري، وصبروا على سوء المعاملة والاضطهاد كما حدث لهم في ألمانيا النازية. حتى إنشاء دولة إسرائيل وهي نشأة سياسية غربية، استُخدم فيها الدين اليهودي. هذه الدولة تحولت إلى دولة عنصرية عدوانية وتضطهد الآخرين، ومن المسلَّم به أن العنصرية والاستبداد السياسي إن تواجدا في مجتمع يكون ذلك خصمًا من مؤشرات مظاهر السعادة والرضا لأفراده. وأعتقد أن هذه حالة الإسرائيلي

الحالي.

عودة لوضع المجتمع الإسرائيلي قبيل ظهور السيد المسيح -عليه السلام- نجدهم خاضعين لحكم روماني وثني، لكن أمورهم الشخصية والدينية كانت بأيديهم، ومن الأحداث المثيرة في هذه الفترة كثرة الخلافات المذهبية والدينية لدرجة قتل النبي زكريا في المعبد، كذلك قيام أحد الولاة بقتل النبي يحيى إرضاءً لابنة زوجته (سالومي)، ويعكس ذلك انحدارًا في التطور الوجداني لبني إسرائيل، خاصة إذا أضفنا انتقادات السيد المسيح الحادة للفريسيين والكهنة عمومًا.

وقد اعترض النبي يوحنا على فساد رؤساء اليهود الدينيين، ودفع حياته ثمنًا لذلك.

أمثلة من انتقادات السيد المسيح

(أمثلة من الإنجيل):

يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين، إليك كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا هوا ذا بيتكم يُترك لكم خرابًا - وقال لتلاميذه: احذروا من الكتبة والفريسيين الذين يرغبون المشي بالطيالسة ويحبوا التحيات والمجالس الأولى في المجامع والمتكئات الأولى في الولائم - قال للفريسيين والكتبة: أنتم عميان قادة عميان، وأعمى يقود أعمى كلاهما يسقط في الحفرة. ودخل المسيح الهيكل ووجدهم يبيعون ويشترون فقلب موائد الصيارفة.

وطرد باعة الحمام وقال لهم: بيتي بيت صلاة يُدعى وأنتم جعلتموه

مغارة لصوص - أيها القادة العميان الذي يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل، أيتها الحيات والأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم إنني أطالبكم بدم الأنبياء ومن دم هابيل الصديق إلى دم زكريا ابن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح.

كانت القيم المسيحية الأصيلة واضحة وتدور حول المحبة والزهد في متع الحياة، والشفقة والرحمة والخوف من الله، والأمل في لقائه في ملكوت السماء حيث الخلود، ولكن الخلافات المذهبية بدأت مبكرًا في ذاته الإله وأمه، وأسرفوا في ذلك أكثر من أربعة قرون امتزجت فيها السياسة بالدين، وانقسم العالم المسيحي إلى كنائس متنافسة وأحيانًا متناحرة؛ الإسكندرية، روما، القسطنطينية وأنطاكية. وتتالت المجامع المسكونة وآخرها مجمع خلقيدونية عام 451 ميلادية، ولمعت أسماء أساقفة واختفت أخرى؛ فلمع اسم آريوس ثم اختفى ولمع اسم إثانسيوس ويوحنا فم الذهب ونسطور، وتدخل الإمبراطور لتقليل الخلافات مع مصر (مصدر قمح الإمبراطورية) وكان الاحتقان على أشده في مصر، وتسبب في حوادث عنف دينية مثل سحل ومقتل العالمة المصرية هيباتيا عام 415م، بدعوى أنها وثنية، وحاول المتطرفون المسيحيون في عهد إثانسيوس مهاجمة المعابد الفرعونية وتشويه جدارياتها بدعوى الوثنية. وقد سبق هذا العنف عنف من الإمبراطورية الرومانية التي اعتنقت المسيحية في آخر عهد الإمبراطور قسطنطين ضد المسيحيين المصريين المخالفين لهم في المذهب، ونكلوا بهم أبشع تنكيل لدرجة أن أقباط مصر جعلوا تقويمهم القبطي مرتبطًا بعصر الشهداء (الإمبراطور دقلديانوس). والمجامع المقدسة المهمة التي شهدت الخلافات المذهبية هي: مجمع أفسوس 325م، مجمع نيقية 354م ثم مجمع خلقيدونية 415م الذي انفصلت فيه الكنيسة

المصرية عن روما. ونشأ المذهب الكاثوليكي على تعاليم بولس الرسول، كذلك الاعتراف بأربعة أناجيل فقط (متى - لوقا - يوحنا - مرقص)، أي أن المسيحية ذات القيمة الأخلاقية الرفيعة حوَّلها الأتباع وصراعاتهم إلى فوضى روحية ووجدانية تسفك فيها الدماء. وسقطت روما في أيدي القبائل الجرمانية في القرن الخامس الميلادي، وبقيت القسطنطينية الإمبراطورية الرومانية الشرقية نحو ما يقرب من ألف عام، بسقوط روما دخلت أوروبا في العصور المظلمة، فلا تقدم مادي يُذكر ولا تقدم وجداني، وكان التخلف العام هو سيد الموقف. ودخلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية في صراع مع الإمبراطورية الفارسية؛ حروب تم فيها سلب بيت المقدس والصليب المقدس، ثم إعادته بعد انتصار الإمبراطور هرقل على منافسه.

وكانت الكثرة الغالبة من المجتمعات البشرية الحضرية تعيش القلق والخوف وتمارس الخلافات المذهبية بين المسيحيين أنفسهم أو الخلافات الدينية مع اليهود أو الفرس، وتكون السلطة لمن غلب، والحكم أبعد ما يكون عن التسامح؛ الملك يفرض ما يراه ويفرض عقيدته.

تمثلت القوى الدولية آنذاك في الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية الشرقية، وكلاهما بدت عليه أعراض الشيخوخة؛ فداخليًّا المجتمعات غير مستقرة تعاني الكثير من مظاهر الفساد وترف الأغنياء ومعاناة الفقراء، ويشغل الحكام شعوبهم بحروب ذات صفة دينية كغطاء سياسي لخداع الشعوب واستغلالها وإلهائها عن الإصلاح الحقيقي، الأمر الذي أوجد شعورًا عامًّا بعدم الرضا وترقب مصلح أو نبي جديد يخلصهم مما هم فيه... وقد كان - وإن كان في مكان غير متوقع ومن قوم لا يُتوقع أحد أن

يخرج منهم نبي منقذ - ظهرت الدعوة الإسلامية عام 610م على يد الرسول محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب صل الله عليه وسلم.

حدث لرسول الله محمد صل الله عليه وسلم ما حدث للأنبياء من قبل من معاناة واضطهاد لدرجة محاولات الاغتيال والمطاردة كغيره من الرسل العظام، إلا أن أحداثه كانت فيِ ضوء التاريخ بحكم تأخر الدعوة زمنيًا بعد اليهودية بألفي عام تقريبًا وبعد المسيحية بستمائة عام. ولد الرسول نحو 570م، وبعث بالرسالة 610م، وتوفي في 6 يونيو 632م سنة 11 هجرية.

تناولنا فيما سبق صور الدعوة اليهودية عن تحقيق غايتها النبيلة، وتحقيق الاستقرار رغم طول الفترة الزمنية بين موسى وعيسى - عليهما السلام- وحدث نفس الشيء للدعوة المسيحية رغم وضوح القيم المسيحية الأصيلة المدعمة للمحبة والصدق والرحمة والزهد والتسامح والسمو بالنفس للتعلق بملكوت السماء والخلود، ولكن الواقع حال دون تحقيق الأهداف، أو أن النفس البشرية كانت أضعف مما تتطلبه المُثل العليا، مما شجع التابعين على الانحراف بالاتجاه الرئيس واهتموا بموضوعات تفرِّق ولا تجمِّع، وتثير الجدل ولا تحسم؛ فنشأت الخلافات المذهبية مبكرًا تناقش اللاهوت والناسوت وقداسة الأم. وتدخلت السياسة في الدين للسيطرة على الشعوب. لغط ديني كثير وجل وتشرذم مسيحي ويهودي، علاوة على مزيج غريب من المعتقدات الوثنية، مهَّدت هذه الفوضى للدعوة الجديدة. وكانت الدعوة الإسلامية في هذه الظروف تمثل تطورًا جذريًّا في الشق الوجداني للإنسان، وكذلك في الشق المادي ظهر فيما بعد أثره في الإمبراطورية الإسلامية. وفي ظنى أن الإسلام قدَّم نموذجًا واضحًا للتعامل مع العالمين: المادي والروحي، ولولا أخطاء جسيمة وقع فيها قادة المسلمين تحت إغراء القوة والرغبة في السيطرة على

الغير لعمّ الخيرُ البشريةَ كلها ولكن ما حدث هو تقدم وجداني عظيم استمر لفترة قصيرة نسبيًّا، عهد الرسول وصحابته ثم التابعين وتابعي التابعين. بما لا يجاوز مائة عام، ثم حدثت انتهاكات للقيم الدينية الروحية، بسبب الغزو (الفتوحات) خارج الأراضي العربية (الشام من الاحتلال الروماني - العراق من الاحتلال الفارسي - مصر من الاحتلال الروماني) حيث كان ضرر هذه الغزوات أكبر بكثير من نفعها على المدى المتوسط والبعيد آنذاك. كما أن شعار إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيل الله خارج الأراضي العربية لم يكن مطلوبًا وإنما كان غطاء سياسيًّا لأطماع دنيوية، ومع ذلك حدث تقدم مادي وحضارة إسلامية كبرى لعدة قرون. نعود لدراستنا لنسأل: ما الجديد الذي أضافه الإسلام لكلا العالمين إن كان هناك بالفعل جديد؟

أولًا: بالنسبة للشق الروحي - الديني الجديد:

1 - فكرة دمج الألوهية مع الربوبية، وهي فكرة جديدة تمامًا؛ حيث إن جميع العقائد في ذلك الوقت كانت بالضرورة تتضمن وساطة ما بين الإله الخالق وبين البشر، والوسطاء إما بشر أحبار وإما رهبان وإما شخصيات أسطورية لهم كهنة وسدنة، وجميع الوسطاء لهم قداسة دينية قد تصل لدرجة العبادة أو الشفاعة أو على الأقل الإرشاد، وهذا ما نفاه الإسلام بشدة فلا رب إلا الله، هو رب العالمين.

2 - فكرة الإيمان والتعبد الطوعي، واحترام حرية الإنسان واختياراته ومسئوليته عن أعماله.

3 - التعايش السلمي في الحياة الدنيا بين الشعوب وتأجيل الخلافات الدينية ليوم القيامة حين يفصل الله وحده فيها: ۞ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ**

لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ (الحجرات: 13).

ومن وجهة نظري، إن هذه الموضوعات الثلاثة تمثل الجديد في العقيدة والتكملة للديانات الإبراهيمية السابقة، وليست مناقضة لها.

ثانيًا: الجديد بالنسبة للعالم الخارجي:

تعرض القرآن الكريم لصور من العالم الخارجي كما في غيره من الكتب المقدسة، ولكن بإضافة شيء جديد تمامًا ألا وهو ربط التأمل - وهو حالة وجدانية - بالملاحظة - وهي حالة عقلانية مادية - لتأكيد التعامل الطبيعي مع الازدواجية محل دراستنا. ومع أن القرآن الكريم لا يحتوي حقائق علمية جاهزة إلا أنه يتضمن موقفًا علميًّا بالغ الأهمية، ألا وهو ضرورة اهتمام الإنسان بالعالم الخارجي، ودعوته للاستجابة له والبحث عن الحقائق المشار إليها، وهذا أمر غير مألوف في أدبيات الديانات الأخرى، هادفًا من ذلك تدبر الإنسان لبديع خلق الله؛ فالملاحظة ليست بلا هدف وإنما هي مزيج من العلم وحب الاستطلاع والمعرفة والإعجاب الديني في صيغ على درجة عالية من الشاعرية، ومن ذلك قوله تعالى: ۚ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ

وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) ۝ (الأنعام: 95 - 99).

وتأمل - أيضًا - القارئ الكريم، قوله تعالى: ۝ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (66) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ (النحل: 66 - 69).

وقوله تعالى: ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ (البقرة: 164).

نجد في هذه الآيات تقبلًا للطبيعة لا صراعًا معها؛ فهي تبرز ما في المادة من جمال. كما أن بعض الآيات توقظ الفضول الفكري معطية للعقل قوة دافعة للاكتشاف مثل، ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۝ (الرعد: 4) هذه الآية تستفز الفكر؛ فهي تطرح مشكلة حلها في أعماق علم الكيمياء أو حبيبات الوراثة الجينية كذلك عندما تقرر آية أخرى ۝ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝ (الأنبياء: 30).

وفي جميع الآيات دعوة للملاحظة وهي آلية مهمة في المنهج التجريبي الحديث الذي أسسه فرانسس بيكون وكان متأثرًا بجده

روجـرز بـيكون الـذي كـان معجبًا جـدًّا بكتـاب الحـيوان للجـاحظ وملاحظاته في عالم الحيوان.

والمـدقق فـي النظـرة للعبـادات والمناسـك الإسـلامية يجـد قاسمًا مشتركًا، ألا وهو التناغم بين الشق الروحي والوجداني والشق المادي في صورة من التكافل والقبول وليس التضاد: الصلاة لقاء روحي بين العبد وربـه خمس مرات في اليوم الواحد على فترات زمنية من تعامل الإنسان مع عالمه الخارجي الصارم والضروري لحفظ نوعه في وقفات وجدانية متكررة بعد التمهيد لهذا اللقاء الوجداني بالوضوء، وكأنـه الفاصـل بـين العالمين أو العازل المؤقت buffer stage هذا النوع من التمهيد لم يكن مألوفًا، ولكن ربما كان البخور وتخفيف الإضاءة بالشموع هو المألوف. هذا المزج بين العالمين نجده أيضًا في الزكاة والصيام؛ فالزكاة تكافل اجتماعي يعبر عنه بالتنازل عن بعض المال، والصيام عبادة خفية بين العبد وربه، ورخصة الإفطار مادية وهي إطعام آخرين. حتى منسك الحج، وهو موعد محدد في شـهر ذى الحجـة الذي يـدور مع السنة الشمسية مثل شهر رمضان وسائر الشهور القمرية، لتحقيق عدالة لسكان كوكب الأرض، نجد فيه نفس الملمح؛ فتجمع الناس في مكان واحد للقاء الخالق ومناجاته في صورة جماعية في زيٍّ واحد غير مخيط أشبه بيوم البعث، إذ يحـرك القلـوب ويفجـر المشـاعر الروحيـة والوجـدانية فـي النفـس البشـرية فـي مشـهد مـهيب غـير مـألوف أيضًا، ثم بانتهاء الموقف والاحتفال بنهايته الجانب المادي من تبادل المنافع بين العباد (الحج بعد الإسلام يختلف عن صورته القديمة قبل الإسلام، وهي تعديلات أدخلها القرآن على هذا المنسك).

خلاصة الفصل الثالث

أسهم المجتمع المصري في تطور العالم الوجداني والروحي للإنسان، وكذلك العالم المادي، وبلغ ذروة إيجابية في الدولة الفرعونية الوسطى، واقترب من العقائد الدينية الصحيحة التي انتفع بها كل من جاء بعدهم كما قال أحد المؤرخين بمعنى أن المجتمع المصري عاش فترات بمؤشرات ومظاهر سعادة ورضا عن النفس والغير والاطمئنان للمستقبل خلال فترات متكررة في رحلة البشرية حتى غزو الهكسوس لمصر، وكان فيه السلب والنهب وفرض عقائد غريبة واستخدام المصري مخزونه الحضاري الإيجابي في طردهم بعد 150 عامًا من المقاومة وليس الاستسلام الكامل، ثم ظهور دعوات التوحيد سواء المصرية على يد أمنحتب الرابع (إخناتون). أو النبي موسى -عليه السلام- العبراني، وظهور الدين اليهودي العظيم بهدف إقامة الحق والعدل على الأرض، إلا أن المسحة المادية كانت غالبة على ممارسات المجتمع اليهودي؛ مما تسبب في عدم تحقيق أهداف الاستقرار والسعادة والرضا عن النفس والغير، بل تسبب في مشكلات وصراعات دموية غير مبررة. وجاءت المسيحية كردّ فعل قوي في اتجاه اللامادية واحتقار الدنيا والتعلق بملكوت السماء والأمل في لقاء الله، إلا أنهم لم يحققوا الأمل المرجو؛ لكثرة المنازعات والخلافات المذهبية، واستخدام الدين في السياسة، وظهور العنف تحت شعارات دينية وكذلك العنف المضاد. ثم جاء الإسلام بنموذج واضح معترفًا بالعالمين: المادي والروحي للإنسان.

ومزج تعامله معهما بما حقق استقرارًا وأضاف مبادئ جديدة. نجحت الدعوة الإسلامية في تحقيق مؤشرات ومظاهر للسعادة والرضا عن النفس والغير، ولكن لفترة صغيرة من الزمن؛ نتيجة الالتفاف على أهم ما جاء بها من جديد وهو التعايش السلمي وعدم الاعتداء، وتأجيل الخلافات الدينية ليوم القيامة ليفصل فيها الله وليس البشر،

واحترام العقائد الأخرى، وحرية الإنسان في اختياراته، الأمر الذي دفع المسلمون لغزو الآخرين خارج الأراضي العربية المحتلة، مما كان له أثر سلبي على التطور الوجداني وعدم الانتفاع به رغم الحاجة إليـه، ومع هذا التطور فقد حقق المسلمون تقدمًا حضاريًّا وماديًّا كبيرًا.

قناة محبي الكتب على التليجرام

الفصل الرابع: أثر الحضارة الإسلامية في الفكر الإنساني

من الصعب إخضاع سلوك المجتمع الإسلامي الأول في عهد رسول الله صل الله عليه وسلم للمعايير السابقة عليه أو اللاحقة له؛ لأن هذه النبوة مختلفة عن نظم البشر التي تقبل غايات السياسة للصالح العام وغطاءها الأخلاقي مع غض الطرف عن الأساليب وارتباطها بالأخلاق، وذلك منذ فجر البشرية حتى يومنا الحاضر. أما في عهد النبي صل الله عليه وسلم والطريق الذي سار عليه في قيادة جماعته في الأمور الداخلية أو في صراعها مع الشرك وأهله؛ فكان طريق الأخلاق والمبادئ الإسلامية، وهي التي كانت تقود، فالناس متساوون لا يتفاضلون إلا بمكارم الأخلاق. ففي مجتمع المدينة الأول انتخب الناسُ اثنا عشر نقيبًا؛ ليتعاونوا مع النبي محمد صل الله عليه وسلم في إدارة الجماعة، وقد زاد العدد فيما بعد وسوف نسوق مثالًا للقياس عليه وهو: عند عرض موضوع معركة بدر واعتراض قافلة أبي سفيان، استقر الرأي بعد المناقشة حول الخروج لبدر لاعتراض القافلة وتفويض الرسول صل الله عليه وسلم في تنفيذ القرار وإدارة المعركة.. فلما خرج الرسول والذين معه إلى الموقع اكتشفوا أن القافلة أفلتت منهم، وأن قريشًا جاءت للحرب هنا، فاختلفت المهمة واختلف الهدف، ولم يستخدم الرسول صل الله عليه وسلم التفويض السابق بل رجع إلى القيادة الجماعية لعرض الموقف الجديد مرة أخرى، واستقر الرأي على تفويض جديد بالقتال، هكذا كان يفعل وهو النبي والرسول. لاحظ التركيز على مبدأ الشورى المستمد من آيات القرآن التي تضمنت أيضًا أن الأمة مصدر السلطات، فيقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ

كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ (آل عمران: 159)، أي لو انفض الناس من حول الزعيم فلا حول له ولا قوة من دونهم.

مثال آخر من رسائل الرسول صل الله عليه وسلم للملوك والرؤساء، لم تتضمن سوى عرض الإسلام على الملك وشعبه، من دون أي ذكر لنزع الحكم أو الغزو. واختلفت ردود الملوك خاصة ذلك الأمير العربي تحت حكم الروم الذي قتل رسول النبي محمد صل الله عليه وسلم قتلة بشعة، كان ذلك سببًا في غزوة مؤتة في السنة السابعة للهجرة التي كادت تكون هزيمة للمسلمين لولا إنقاذ خالد بن الوليد للجيش الإسلامي، وعاد به من دون نصر أو هزيمة. إذا قارنا ذلك بالنبي سليمان -عليه السلام- في مخاطبته لملكة سبأ يدعوها للإيمان وإلا أرسل إليها جيشًا يغزوها.. هنا الفرق واضح جدًّا ففي عهد الرسول صل الله عليه وسلم كما جاء في أحد البحوث التاريخية لم يُقتل من الجانبين في حروبه كلها سوى 384 إنسانًا، ومعظم المعارك ضحاياها أفراد أو عشرات أو صفر مثل حملة تبوك السياسية الهدف في السنة التاسعة، فمثلًا ضحايا فتح مكة أفراد قاوموا خالد بن الوليد، بدر عشرات، أُحد عشرات، الخندق نحو عشرين. وهكذا فالمبادئ الإسلامية التي تجرم الاعتداء ولا تحرض عليه هي التي كانت تقود الجماعة في عهد الرسول صل الله عليه وسلم. ولا شك أن مجتمعًا فتيًّا يلتزم بالمبادئ الأخلاقية في كل شيء من الطبيعي أن تكون لديه مؤشرات ومظاهر إيجابية للشعور بالسعادة والرضا عن النفس والغير والثقة في المستقبل، رغم الفقر المادي وشظف العيش.

خَلَف الصحابيُّ أبو بكر رضي الله عنه الرسولَ صل الله عليه وسلم في قيادة الأمة الإسلامية الفتية وهنا لابد من الاعتراف، رغم عظمة شخصية أبي بكر فهو تلميذ الرسول صل الله عليه وسلم وصديقه، إلا أن هيبة النبوة كان لها أثر مختلف جدًّا اختص الله تعالى بها

رسوله؛ لذلك حدثت مشاكل رفض دفع الزكاة للحكومة المركزية، الأمر الذي تسبب فيما يُعرف بحروب الردة.

والحقيقة أن بداية الانحراف عن المنهج المحمدي بدء تدريجيًّا مع وفاة الرسول صل الله عليه وسلم، وبشائر ذلك كانت في سقيفة بني ساعدة ذلك الاجتماع الذي انتهى باختيار الصحابي أبي بكر خليفة لرسول الله. ما يعنينا هنا أن جماعة المسلمين التي كانت تدير أمور الناس بتوجيهات النبوة من مبادئ وقيم كان عددهم ثلاثين صحابيًّا اثني عشر من المهاجرين، ومثلهم من الأنصار، وستة من بسطاء أهل المدينة، وهم أفراد من بقايا قبيلة قضاعة التي فقدت وحدتها منذ زمن ولم يعد لهم وضع اجتماعي، يفلحون الأرض لصالح سادة المدينة سواء من الأوس أو الخزرج أو اليهود. من هؤلاء كان المقداد بن الأسود الذي قرَّبه رسول الله وكان له شأن كبير في فتح مصر.

لا تذكر معظم السير العمل العظيم الذي فعله رسول الله صل الله عليه وسلم بخلاف مصالحة الأوس والخزرج، ومؤاخاة المهاجرين والأنصار، وإصدار صحيفة إقرار مبدأ المواطنة، ألا وهو تمليك بسطاء قضاعة بعضًا من أرض المدينة واتخاذ صحابة أجلاء منهم.

ما جرى في السقيفة لم يكن كعهد رسول الله صل الله عليه وسلم في التشاور والانتخاب واتخاذ القرار، بل كان المستوى أقل، كادت المفاخرة تطل برأسها بين المهاجرين والأنصار الذين كانوا يتحسبون للزمن ويريدون ضوابط للحكم أكثر من كون أبي بكر رجلًا صالحًا وتقيًا، وأصبح لجماعة المسلمين خليفة واسع السلطة من دون مدة محدودة. والأغرب ظهور قاعدة جديدة تمامًا (أنه لابد أن يكون قرشيًا) بدأ الانفصال التدريجي بين جماعة الإسلام (الصحابة) ودولة الإسلام مبكرًا، وحدثت أخطاء من الدولة أو الخليفة ممثلًا لها، يمثل

تمايز الأعطيات بين الجماعة، فأعطى عمر رضي الله عنه، الخليفة الثاني، السابقين في الإسلام وأهل البيت نصيبًا أكبر من الآخرين. وكان هناك رأي آخر وهو أن الأعطيات للمعاش وليست مكافآت. كان هذا الخطأ البسيط ظاهريًّا، والمبرر عند كثيرين سببًا أساسيًّا في التمرد على الخليفة الثالث، وسببًا غير مباشر في مقتله.. كيف؟ لقد تسامع الجند في الأمصار خاصة المصريون، وكانوا حديثي عهد بالإسلام بالأعطيات المُبالغ فيها لأهل المدينة آلاف الدراهم وهم لا ينالون إلا القليل جدًّا؛ فقرروا الحضور لمناقشة جماعة الصحابة (الجماعة) بما فيهم الخليفة نفسه في هذا الأمر، وطلب تعديله، فلم يجدوا آذانًا تسمع، ووجدوا الخليفة لا يدري شيئًا عن إدارة الحكم، فقد أسندها لبني أمية وتفرغ للعبادة والزهد، وكان مسنًّا فطالبوه بالتنحي وكاد يفعل لولا قرابته حرَّضته على رفض المطالب، وكانت بني أمية بلغت من الغنى والنفوذ درجة كبيرة، ضغطت على دور الجماعة لصالح الدولة، وحدث الهرج والمرج، وقتل عثمان في الزحمة في الغالب من غير قصد، وبدأت الفتنه الكبرى بأحداثها المعروفة، ومن الأفضل تحديد التعاريف الملتبسة بين لفظ الجماعة الإسلامية والمجتمع الإسلامي والدولة؛ لأن ذلك له علاقة بالدراسة التي بين أيدينا.

فالجماعة وهي جموع المؤمنين التي تجمعهم المبادئ والقيم الأخلاقية والدينية أساسًا، وهي بذلك تميل نحو العالم الروحي والوجداني والديني أكثر من ميلها للعالم المادي، وهي كيان مستقل عن الدولة وعلاقتها بالدولة الرقابة والتوجيه وكبح جماح الاستبداد في الدولة ما أمكن، أما لفظ المجتمع فيشمل كل الجماعات إن كان هناك تعدد فيها، ويشمل قوانين الدولة وأثرها في حركة الناس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهذا يعني أن ينتمي المجتمع

للعالم المادي. والحقيقة لم يكتمل معنى لفظ المجتمع إلا بظهور الدولة الوطنية، أما في العصور التي نحن بصددها (العصور الوسطى) فتعني مظاهر التأثيرات المتبادلة بين الجماعة أو الجماعات وبين نظام الحكم والظروف التاريخية والجغرافية في كل مصر من الأمصار؛ لذلك فالجماعة في صدر الإسلام وعلى عهد النبوة وما يليه قبل الفتوحات كانت تتكون من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. أما بعد الفتوحات واتساع رقعة الجماعة الإسلامية نفسها وانضمام جماعات أخرى فيصبح المجتمع في كل مصر من الأمصار له سماته الخاصة حتى لو كانت الأمصار تابعة لكيان سياسي أكبر (الخلافة) لذلك فأحداث الفترة الزاهرة في مجتمع المدينة كانت لها ظروف خاصة، والغرض من هذا التنويه هو ألا نقع في تعميم ما لا يجوز تعميمه، أو السعي لتطبيق ما لا يمكن تطبيقه لاختلاف الزمان والمكان وخصوصية المجتمعات.

الفتوحات الإسلامية:

كتب عن الفتوحات الإسلامية الكثير جدًّا، وكل الكتابات تعتبرها سابقة تاريخية على مستوى العالم، إذ إنها في أقل من قرن تم اجتياح مساحات من المعمورة أكبر مما حققته أي قوة سابقة عليها، هذا معروف.. ولكن في هذا القرن الحربي محطات تستحق التأمل، وأحيانًا التساؤل، فمثلًا على حساب من كانت هذه التوسعات؟ والإجابة أنها كانت على حساب:

أولًا: الإمبراطورية الفارسية التي كانت تحتل العراق من أرض العرب وتحارب الروم كقوة دولية منافسة.

ثانيًا: الإمبراطورية الرومانية وكانت تحتل الشام ومصر والأجزاء

الشمالية الغربية من جزيرة العرب نفسها.

ثالثًا: دولة القوط في شبه جزيرة أيبريا وقد غزاها القوط قادمين من وسط أوروبا قبل نحو 120 سنة فقط من الفتح العربي، وفرضوا على سكان إسبانيا والبرتغال المذهب الكاثوليكي، وكانوا قبل ذلك يدينون بالمذهب الأريوسي والسكان الأصليون مختلفون عرقيًّا عن القوط الغربيين.

رابعًا: قبائل شمال إفريقيا البربرية الوثنية في غالبيتها.

كيف نشأت فكرة الفتوحات ومتى؟

من المعروف أن القرآن يعتبر أهل الكتاب أقرب للإسلام من أي عقائد أخرى، فكان رسول الله صل الله عليه وسلم يأمل كثيرًا في دعمهم للدين الإسلامي وقصة متابعة حرب الرومان والفرس من العرب، سواء كانوا مسلمين أو أهل شرك معروفة، حيث كان المسلمون من يتمنون فوز الروم والمشركون عكس ذلك، ولما نزلت سورة الروم:
۝ غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (الروم: 2-4).

وصدقت نبوءة القرآن وفرح المسلمون بانتصار هرقل واسترداد صليب بيت المقدس ثم كانت رسائل الرسول للملوك، وكان رد هرقل والمقوقس كريمًا لا يقارن برد كسرى وكان هذا طبيعيًّا. ورغم ذلك فقد تحرش الروم بالمسلمين كقوة صاعدة، وفي السنة التاسعة للهجرة كان مجتمع المدينة يعيش الخوف من غزو الروم، وكان لهم عملاء يروجون لذلك. المهم أن فكرة تأمين المجتمع الإسلامي بل وفكرة تحرير الأراضي العربية من الاحتلال الفارسي الروسي تشغل

بال قادة المسلمين.

بعد تمكين الخليفة أبي بكر رضي الله عنه من توحيد جزيرة العرب بمعاونة خالد بن الوليد، وأصبح لدى المسلمين قوة عسكرية منظمة ولها خبرة قتال لا بأس بها، بدأ أبو بكر في تنفيذ فكرة تحرير الأراضي العربية تحت الاحتلال الروماني والفارسي، وأرسل الخليفة أبو بكر جيوشه للحيرة في العراق وفلسطين. واستكمل الخليفة عمر بن الخطاب فتح الشام كله ومصر والعراق. وقد استغرق فتح الشام من عام 12 هـ إلى 16 هـ، ومصر من 19ته إلى 21 ه، أما فارس فقد توقف الجيش الإسلامي في الحيرة بعد تحريرها، ولكن الإمبراطورية الفارسية هاجمتهم وهزمتهم في موقعة الجسر عام 13ه، الأمر الذي دفع الخليفة عمر بن الخطاب لمهاجمة أرض الإمبراطورية نفسها، واستغرق ذلك من 16ه إلى 32ه في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان. أما شمال إفريقيا فقد اجتاحه أولًا عقبة بن نافع حتى المحيط الأطلسي، وأسس مدينة القيروان 27 ه، ولكن لم يستقر الفتح الإسلامي ألا عام 91ه على يد موسى بن نصير يعاونه طارق بن زياد البربري. هذه الفترة الكبيرة محل تساؤل... لماذا؟

هل كانت المساحات والمسافات كبيرة؟ نحو ستة آلاف كيلومتر، أم لقوة القبائل الوثنية أم لرغبة الفاتحين في تمكين الإسلام في الشمال الإفريقي أولًا؟

إن استيعاب البربر للدين الإسلامي وحماسهم له فيما بعد كان قويًّا، فمنهم خرج موسى بن نصير وطارق بن زياد، أما العبور للأندلس فقد قام به طارق بن زياد في سرعة خاطفة من 91ه إلى 95ه، وهي فترة زمنية قصيرة جدًّا على حجم دولة إسبانيا والبرتغال. عندما نتأمل الفاصل الزمني الذي استغرقته فتوح كل مصر من الأمصار نجد

العديد من الأسباب الخاصة بكلٍّ على حده كالآتي:

أولًا: الشام:

السكان من أصول عربية - الاحتلال روماني مسيحي على غير مذاهب الشرق - أعداد كبيرة من اليهود - وضع ديني متميز اكتسبه رجال الدين أثناء الخلافات الدينية - عدم رضا عام عن الاحتلال العسكري والديني للرومان - دافعت الجيوش الرومانية عن الشام جيدًا لأهميته بالنسبة للإمبراطورية. ومع ذلك كانت عبقرية خالد بن الوليد أكبر من المقاومة، ثم أبو عبيدة بن الجراح الصحابي الجليل والقائد العسكري الذي كان يعيش، وهو القائد العام، في حجرة واحدة ليس بها سوى فروة يفترشها وقربة ماء ومخلة بها لقيمات من الخبز، قابل في هذه الحجرة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب الذي حضر لتسلم بيت المقدس. أما خالد فقد عزله الخليفة وسمع وأطاع، ثم اعتزل في حمص حتى توفي في عهد الخليفة الثالث.

ثانيًا: مصر:

شعب له حضارة واقع تحت احتلال روماني غاشم عسكري وديني أيضًا حيث اضطُهد المصريون اضطهادًا بشعًا قبل اعتناق روما المسيحية وبعد اعتناقها المذهب الكاثوليكي المرتبط بطرد الكنيسة المصرية في مجمع خلقيدونية 451 ميلادية.

قبيل الفتح اضطهد المقوقس الحاكم الروماني البابا بنيامين بطريرك الكنيسة المرقسية، مما جعله يهرب في الصحراء الغربية واختفى عن السلطة - الحاميات الرومانية تمركزت في حصن بابليون (القاهرة) والإسكندرية. ساعد أهالي مصر جيش عمرو بن العاص على طول طريقة من الفرما لقلب البلاد؛ لذلك لم يستغرق الفتح أكثر

من عامين بما في ذلك فتح برقة، وهناك عامل آخر هو خبرة عمرو بن العاص نفسه بأهل مصر في زيارته السابقة قبل الإسلام للتجارة، علاوة على ذكائه الشديد ودهائه المعترف به من الجميع. وأول عمل له بعد الفتح كان البحث عن البطريرك بنيامين وإعادته مكرمًا إلى كرسيه البابوي ثم بناؤه جامع عمرو ابن العاص... تولى عمرو ابن العاص ولاية مصر مرتين بينهما فاصل زمني يسير، وكان ناجحًا بصفة عامة.

ثالثًا: شمال إفريقيا والأندلس:

البربر شعب من شعوب البحر المتوسط، يشابه شعوب جنوب أوروبا وأبناء عمومه سكان شبه جزيرة أيبريا الأصليين (غير القوط)، وكانوا إمارات متفرقة بعضها حكمه الرومان والباقي قبائل وثنية وهم قسمان رئيسين:

القسم الأول: كان الشمال وهم شقر وبيض الوجوه.

والقسم الثاني: داخلي شمر الوجوه ويعيشون كالبدو، فالقسم الشمالي كانت له صلات واتصالات بجزر البحر المتوسط وجنوب أوروبا، وله لغته الخاصة الإمازيجية.

أذهلهم سرعة انطلاق عقبة بن نافع في أول الأمر ثم بدءوا المقاومة واعتناق الإسلام في نفس الوقت وهم أصحاب فكرة تحرير سكان شبه جزيرة أيبريا من القوط. وهذا يفسر سرعة فتح طارق بن زياد لأيبريا في أربع سنوات فقط. 91ه إلى 95ه.

الحالة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا حتى القرن الحادي عشر:

كان القرن التاسع والعاشر وجزء من الحادي عشر عصر تدهور اقتصادي واجتماعي بصفة عامة، وكان النظام الاجتماعي يعتمد على خدمة العسكريين وولاء الفرسان إلى أمرائهم مقابل إقطاعيات يحوزونها، كما يعتمد على خدمة العمل التي يقدمها الزراع لأسيادهم مقابل الحيازات التي يسمح للفلاحين باستغلالها، وقد ظل هذا النظام سائدًا بعد هذا العصر ربما حتى الثورة الفرنسية.

وكانت أوروبا بعد المحاولة الإصلاحية للإمبراطور شارلمان مشغولة بصد الغارات من كل اتجاه؛ مما سبب هجرة الفلاحين للحقول، خوفًا من الانتهاب، وضعفت البابوية في تلك الفترة، وفقدت الكثير من الهيبة، حتى إن روما نفسها قد تعرضت للنهب في القرن التاسع الميلادي. ولكن في القرن الحادي عشر بدأت موجات التهديد في الانحسار، وبدأت المدن تنمو، وعدد السكان يزداد، وعاد الفلاحون إلى حقولهم، ونشطت الدعوة للجهاد المقدس بجهود البابوات الذين استعادوا قدرًا كبيرًا مما فقدوه من هيبتهم التي ضعفت، لدرجة أن اضطر معها البابا يوحنا الثامن (872 - 882) إلى دفع الجزية لمدة عامين للمسلمين.

العالم الإسلامي حتى القرن الحادي عشر:

كان الأندلس في عصره الذهبي مسيطرًا على شبه الجزيرة الأيبيرية فيما عدا جيوب في أقصى الشمال والشمال الغربي صارت فيما بعد ممالك مسيحية قوية.. أما في الشرق فكانت بغداد مدينة العباسيين الجديدة بالغة الثراء والاتساع، وإلى جانب العواصم (بغداد وقرطبة) ازدهرت المدن الإسلامية بصفة عامة، وإجمالًا كان العالم الإسلامي هو الجانب الأقوى عسكريًّا وحضاريًّا، وكان البحر المتوسط بحيرة

عربية نشطت فيه التجارة نشاطًا كبيرًا، وكان الغنى واليسار الطابع العام للمدن الإسلامية، فعلى سبيل المثال كان سكان قرطبة أكثر من مليون نسمة يسكن العامة فيها 113 ألف مبنى. أما الخاصة فدورهم كانت ستين ألفًا وبها 1600 فندق و452 حانة، وكانت مقسمة إلى واحد وعشرين حيًّا يسكن الخاصة في ثلاثة أحياء وهي الرصافة والزهراء والزاهرة، وشوارع هذه المدينة مرصوفة بالحصى ومضاءة ليلًا بالسراج بأطوال تصل إلى 16 كم، وكانت المياه تجري إلى المنازل في شبكة عامة من الرصاص، أما في بغداد فقد ذكر ابن خلدون دخل الدولة العباسية السنوي أيام الرشيد كان 7015 قنطارًا، والقنطار في حسابه عشرة آلاف دينار، فيكون الدخل سبعين مليونًا وخمسين ألف دينار وهو رقم ضخم في هذا الزمان.

النشاط البحري الإسلامي:

ظهور دولة الأغالبة (المغرب الأوسط) 800 - 909م وهي دولة بحرية من الدرجة الأولى، فقد فتحوا صقلية عام 827م ومالطة وجنوب إيطاليا، ووصل أسطولهم البحري في حملات منتظمة حتى مصب نهر البوفي شمال إيطاليا عام 838م، بل إنهم دخلوا روما نفسها في 22 أغسطس 846م وانتهبوها، تسببت هذه الغزوات في كراهية الأوروبين للإسلام والمسلمين، وضرر هذه الغزوات على الدين الإسلامي كان مؤثرًا جدًّا؛ فقد استُغل من الباباوات أسوأ استغلال ضد الإسلام، كما قام غزاة البحر المسلمون بالنزول في دلتا نهر الرون المعروفة باسم comargue وأنشأوا قاعدة عسكرية ثانية يشنون منها غارات على فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا وفيما بين عام (891 - 894) تمكن غزاة البحر من النزول في خلية سان تروبيز في جنوب فرنسا وتحصنوا في جبال فرانكتنويم Saint Tropez

وأنشأوا قواعد لهم في جبال الألب، وتوغلوا في Fraxintum سويسرا في سان جالن Saint Galen عام 943م، وقد حاول اتوجدب ملك إيطاليا إخراجهم من هذه المنطقة بالتعاون مع إمبراطور بيزنطة رومانيوس ولكنهما فشلا، واستمر المسلمون هناك حتى عام 972م عندما أخرجهم الإمبراطور آتو الأول، ولكن هذه السيادة البحرية تقلصت في منتصف القرن الحادي عشر بظهور النورمان كقوة في جنوب إيطاليا عندما استنجد بهم أحد ملوك الطوائف في الأندلس في تنازعهم على حكم جزيرة صقلية (محمد بن إبراهيم القادر بالله) فأقبل ملك النورمان إلى صقلية واستولى على معاقلها وأبقى حكامها المسلمين، إلا أن ابن هذا الملك (روجر الثاني) أعلن نفسه ملكًا على صقلية، وكان متسامحًا مع المسلمين. ومن الطريف أن بلاط هذا الملك كان إسلامي الشكل والتقاليد، وكان نصف جيشه من النورمان والنصف الآخر من المسلمين، وأنه أحاط نفسه بعلماء بيزنطة وعلماء المسلمين الذي كان أشهرهم عالم الجغرافية الشهير الشريف الإدريسي (صاحب أول خريطة للعالم المعروف آنئذ على عكس الشائع أنه بطليموس) وقد رسمها على طبق من الفضة. أما في الأندلس فقد سقطت الخلافة الأموية في أوائل القرن الحادي عشر 1031م وبدأ حكم ملوك الطوائف المتنازعين؛ مما هيأ الفرص لملوك ليون وقشتالة، مثل ألفونسو السادس، لاستخلاص طليطلة عاصمة القوط القديمة عام 1085م، مما رفع الروح المعنوية للعالم المسيحي كله ودعا البابا أوربان الثاني لتوجيه حملات صليبية لاستخلاص بيت المقدس من المسلمين في نهاية القرن الحادي عشر 1095م.

الحالة الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي:

شهدت القرون الثلاثة نهضة فكرية إسلامية تمثلت في استحداث عدة مبادئ ترشد الإبداع الإنساني: الأول هو فصل الفلسفة عن العلوم الطبيعية، والثاني إرساء مبادئ المذهب النقدي، والثالث ظهور التعليم المدني بجانب التعليم الديني، الأمر الذي لم يكن موجودًا من قبل بالإضافة إلى إبراز أهميته، تلك الأهمية التي اعتمدت عليها النهضة الأوروبية بعد خمسة قرون تالية.

كيف كان ذلك وما هو الدليل عليه؟ كان أول من فصل علم الطب عن الفلسفة هو الطبيب الشهير ابن زهر الإشبيلي، وله أبحاث في معالجة الجرب بالكبريت، وأزمات الربو، وألف كتابًا اسمه (التيسير في المداواة والتدبير) ظل مرجعًا من أهم المراجع الطبية في أوروبا حتى القرن السادس عشر وكان كتابه هذا من أوله لآخره موضوعيًّا بالنسبة للطب.. والطب وحدة.

أما في العلوم الإنسانية، فنتكلم عن الإمام ابن حزم (384-456ه) كرائد من رواد التاريخ المؤسس على المنهجية العلمية، وهو أول من أدرك أن للتاريخ تفسيرًا، وأن وراء جزئيات أحداث التاريخ عوامل تؤثر في حركته، وهو اكتشاف مهم لم تعرفه أوروبا ورقيها.. فقد سبق عصره بإدخال الحِرَف المهنية وأساليب الزراعة في برامج التعليم.. ودعنا نتأمل النص التالي من رسائل ابن حزم في القرن الحادي عشر، يقول:

"العيش لا يكون إلا بتفاهم ضرورة، والتفاهم لا يكون إلا من عاقل مميز، ولا سبيل إلى أن يبلغ السن إلا بتربية، كما أن التفاهم لا يكون إلا بتعليم لابد كذلك في جميع الصناعات.. من آلات حرب والعمل بها.. وآلات نسيج والعمل بها.. والطب وسائر العلوم والصناعات لا يكون إلا بتعليم ابتداء.. وكل ما علم.. فهو علم فيدخل في علم

التجارة والخياطة والتدبير الفني والفلاحة وتدبير الشجر والبناء وغير ذلك... هذه لغة الإمام ابن حزم.. رحمه الله".

من المعروف أن أبا الطب القديم جالينوس الإغريقي السكندري ومن بعده ابن سينا، وقد لقب ابن سينا بالشيخ الرئيس. ثم جاء ابن النفيس الدمشقي مكتشف الدورة الدموية للإنسان قبل سيرفيرس البرتغالي بثلاثمائة عام يعارض السابقين ومنهم الشيخ الرئيس ابن سينا في بعض الموضوعات بأدب جم، ولكن في شجاعة فيقول:

"إننا نعتمد على ما يقتضي النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفهم".. قيل هذا الكلام قبل عصر النهضة الأوروبية بعدة قرون.

وقد نشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية في هذه الفترة، وعلى سبيل المثال كتاب الطبيب الزهراوي وهو في 400.000 كلمة ترجم الجزء الأول سنة قسطنطين الإفريقي إلى اللاتينية عام 1087م، وظهرت الترجمة الكاملة له 1127م، ولا داعي للخوض في أعلام العلماء الذين ظهروا تباعًا.. ويكفي أن تعرف أن ضاحية كاملة من ضواحي قرطبة وهي الزهراء كانت متخصصة في الطب.. فكان بها خمسون مستشفى ومكتبتها بها 250 ألف مخطوطة متخصصة في الطب. وعلى سبيل المثال أيضًا ألف الطبيب الزهراوي موسوعة طبية في ثلاثين مقالة بها وصف ورسم وصور مائتي آلة جراحية أكثرها من اختراعه مثل جفت الولادة المستخدم حتى الآن بعد تطويره. ولم يكن حال المشرق الإسلامي بأقل منه في الأندلس الزاهر، وإليك بعض تراث الخوارزمي كمثال:

1 - **كتاب صورة الأرض**: نسخة وحيدة بالعربية محفوظة في مكتبة

جامعة استراسبورج بفرنسا.

2 - **كتاب تحديد زاوية السمت:** نسخة وحيدة في إسطنبول.

3 - **كتاب الساعات الشمسية:** نسخة وحيدة في إسطنبول.

4 - **النظام العشري في الحساب.**

5 - **كتاب الجبر والمقابلة** ونسخته الأصلية بالاتحاد السوفيتي.

وقد ترجمت معظم كتبه إن لم يكن كلها إلى اللاتينية.

أما في مصر في العهد الفاطمي، فكان ابن يونس المصري مكتشف حركة البندول وهو صانع أول ساعة دقاقة تعمل بحركة البندول وصحح الجداول الفلكية للسابقين، إن كل ما ذكرته موثق في مراجع معتمدة، وقد اخترت مثالًا لأحد الكتب التي أدهشتنى ورأيت أن أحاول إشراك القارئ العزيز في دهشتي إن استطعت، ألا وهو كتاب "الحيل" لأحمد بن موسى ابن شاكر، وهو ثالث ثلاثة إخوة كلهم علماء معروفون تاريخيًا بأبناء موسى (عاشوا في القرن التاسع الميلادي) وهذا الكتاب يتضمن سبعين تصميمًا لأجهزة الأواني السحرية، وخمسة عشر جهازًا للتحكم الذاتي، وسبعة نوافير ماء وثلاثة مصابيح زيت ونظام رافع ميكانيكي، وتعتمد طرق العمل على مبادئ الضغط الأيروستاتيكي والهيدروستاتيكي، ولا يزال بعضها يلبي متطلبات الميكانيكا والتحكم الذاتي في العصر الحالي (من دون مبالغة) ويقدم التحكم التلقائي وقد تناول (الدكتور أتيلا بيير) الكتاب بالتحليل مع شرحه شرحًا معاصرًا، والكتاب موجود في مكتبة متحف سراي وطوب بإسطنبول تحت رقم A7374. ومن يتأمل هذا الكتاب يمكنه القول بأن تكنولوجيا عصر النهضة الأوروبية تدين له بالكثير.

وقد عاصر الإخوة العلماء من الخلفاء العباسيين: المأمون الذي كلفهم

بأول مهمة في شبابهم وهي تدقيق ما جاء في كتب القدماء عن محيط الأرض وهو 25000 ميل، وقاموا بتجارب ميدانية أثبتوا فيها أن المحيط 24.000 ميل، وهو رقم قريب جدًّا من الحقيقة، كما عاصروا المعتصم والواثق، وقد بلغ نشاطهم أوجه في عهد المتوكل(847-861م).

خلاصة القول إن هذه القرون الثلاثة الأولى كانت عصر سيادة الفكر والعلم العربي الإسلامي للعالم كله، كما كان عصر السيطرة التجارية والعسكرية أيضًا وعصر الترف والازدهار للمدن الإسلامية.

وفي المقابل كان الغرب اللاتيني الذي بدأ في الانتعاش الاقتصادي في أواخر القرن الحادي عشر وتحت تأثير التعصب الديني يدعو للعنف والجهاد المقدس ضد المسلمين، ولقد بدأت الدعوة إلى الجهاد بعد ورود أخبار انتصارات الأتراك السلاجقة على الإمبراطورية البيزنطية وأَسر الإمبراطور رومانوس 1071م. كذلك ورود أنباء أول انتصارات مسيحية في إسبانيا على ملوك الطوائف عام 1057م بعد سقوط الخلافة الأموية بستة وعشرين عامًا.

رغم ما أشرت إليه من تقدم حضاري مادي في العالم الإسلامي الذي بلغ أوجه في القرن الحادي عشر الميلادي، فإن هذه الفترة تضمنت تغيرات سلبية وجدانية وروحية ودينية؛ **أولها** قبول الجماعة الإسلامية للتخلي التدريجي عن مبادئ وقيم أخلاقية أكدت عليها الجماعة الأولى في عهد النبوة، وما يليه بقليل في شأن القيادة الجماعية، وضرورة الشورى واللاطبقية في الجماعة الإسلامية.

الأمر الذي أدى إلى حكم استبدادي غير محدد المدة مع شورى اختيارية، مما أدى للصراع من أجل الحكم وتأمينه وما يتطلبه ذلك في أحيان كثيرة من تخلٍّ عن مبادئ وقيم روحية عظيمة.

الانتكاسة الثانية والأكثر خطورة للجماعة الإسلامية أن الجماعات الإسلامية (بعد التوسع الكبير الذي أضافته لها الفتوحات) وهي توقف الاجتهاد بعد عصر الأئمة الكبار بقليل إلا فيما ندر، ولكن منذ القرن الثالث الهجري أصبح الرجوع لما قال به الأولون هو الصفة الغالبة في العلوم الشرعية، وبدأت وكأن أعناق الفقهاء تنظر دائمًا للخلف، حيث ضعفت الثقة بالنفس كي تأتي بأفضل مما أتى به السابقون، وتم فعلًا قفل باب الاجتهاد. ولازلنا حتى وقتنا الحاضر نعاني من هذه الانتكاسة التي كان لها دخل كبير في تدهور التقدم المادي أيضًا فيما بعد ذلك بعدة قرون.

وللدلالة على ما أقول، فبالرغم من أننا في القرن الواحد والعشرين فقد أثيرت موضوعات هي بالقطع من فقه الفروع مثل إطلاق اللحى، ومطالبة بعض ضباط الشرطة بإطلاقها... ماذا فعلنا؟

استعدنا ما قاله الأولون من نحو ألف عام وهو الغالبية كانت تقول بالوجوب، والشافعية قالوا إنها سُنة، وبعض الآراء الأقل أنها عادة.

السؤال بسيط: لمن ذكر ما قاله الأولون هل لو عاش السابقون أيامنا هذه، ومنهم الإمام العظيم الشافعي الذي غيَّر بعض فتواه عندما غير مكانه وجاء إلى مصر، لو طرحت عليهم المشكلة وهم معنا هل نسبة الإجابة كانت ستظل ثابتة؟ الأغلبية وجوب والأقلية سُنة، والأقل عادة، أم يحتمل أن تنعكس النسب، مجرد سؤال. هذا إلى جانب الأثر السيئ الذي تركته غزاة البحر في القرن التاسع وحتى أوائل القرن العاشر من سلب ونهب باسم الدين في مدن أوروبا، مما زاد من التعصب المسيحي ضد الإسلام، ورغم هذه الانتكاسات فقد ظلت الجماعة الإسلامية ذات تأثير إيجابي في مختلف العصور وخاصة في الفترة اللاحقة للقرن الحادي عشر، وهي فترة الحروب الصليبية

كما يسميها الأوروبيون، وحروب الفرنجة كما يسميها المسلمون.

ومن قبل ذلك كان هناك مواقف كبيرة لرموز الجماعة الإسلامية في مواجهة الدولة مثل موقف الإمام أبي حنيفة وقد عاصر أواخر الخلافة الأموية وصدر الخلافة العباسية عندما سُئل عن البيعة، وكانت إجابته في المرتين مع الدولة الأموية والعباسية أنه لا بيعة لمكره وعوقب مرتين من الدولتين.

ذكر موقف ابن حنبل القوي في مواجهة السلطة في فتنة خلق القرآن، وبعد فترة زمنية نجد الإمام ابن حزم متحدثًا لعموم الناس عن ذكر الله، فيقول: فلتكن مطرقة الحداد مسبحته.. هكذا.

أما عن الشعور بالسعادة والاطمئنان للمستقبل والرضا عن النفس والغير، فإن الفترة وحتى نهاية القرن الثالث الهجري كانت مؤشراتها ومظاهرها إيجابية سواء كانت في الجناح الشرقي أو الغربي في المجتمعات الإسلامية. فالتوتر بين العباسيين وبيزنطة محدود للغاية والغزوات المتبادلة كادت أن تكون رمزية ونفس الشيء بين الخلافة الأموية في الأندلس والإمبراطور شارلمان. وشهدت هذه الفترة محورين: إسلامي مسيحي يمثله هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان، ومحور آخر مسيحي إسلامي ويمثله نقفور إمبراطور بيزنطة والخليفة الأموي عبد الرحمن الداخل (كانوا يتبادلون الهدايا).

بعد القرن الحادي عشر وسقوط الخلافة الأموية 1031م وبدء حكم ملوك الطوائف بدأت حركة الاسترداد الصليبية في إسبانيا خاصة بعد ارتفاع معنوياتها بسقوط طليطلة عام 1085م والدعوة للحروب الصليبية المقدسة 1095م التي استمرت في الشام ومصر نحو قرنين، ولكن البعض يفضل القول باستمرار الصراع الإسلامي

المسيحي حتى نهايات القرن الخامس عشر أربعة قرون دامية - قاسية - تغيرت فيها كثير من موازين القوى والنتائج من دون الدخول في تفاصيل هذه المرحلة الكئيبة في تاريخ البشرية، هي:

1 - فشل الحملات الصليبية على مصر والشام.
2 - نجاح الغرب في تحرير جزيرة صقلية في أوائل القرن الحادي عشر وسقوط عاصمة الأندلس قرطبة في 1250م.
3 - سقوط عاصمة الإمبرطورية البيزنطية في يد المسلمين الأتراك عام 1453م، وصعودهم كقوة عالمية حتى نهاية القرن السابع عشر.
4 - سقوط مملكة غرناطة وزوال الحكم الإسلامي في شبه جزيرة أيبريا يناير 1492م.
5 - التمهيد لحركة الإصلاح الديني وظهور المذهب البروتستنتي (الخارج على كنيسة روما والبابا) القرن السادس عشر.
6 - تجدد التعصب الديني اللاتيني ضد الإسلام والمسلمين.

ورغم ما تقدم فالجدير بالذكر بالنسبة للعالم الإسلامي والمسلمين فإن التطور الوجداني والروحي والفني والديني في مجمله كان يميل للإيجابية بنسبة بسيطة، ومع ذلك أثرت في التقدم المادي وللتوضيح معظم الأنشطة الإنسانية تجمع بين العالمين الروحي والمادي بنسب متفاوتة سبق أن أشرنا إلى ذلك، فداخل كل مفكر أو عالم عظيم يوجد متأمل يقبع في ركن من عقله، ويعبر عن نفسه في كثير من الأحيان. والهندسة المعمارية علم وفن، والإبداع في أنظمة التحكم علم وفن، وما يعرف الآن بالخيال العلمي هو أيضًا فن وعلم.

لذلك من السهل على المدقق ملاحظة أثر الدين والفن على العمارة الإسلامية والإبداع العلمي في الطب والضوء والرياضة والكمياء

لدى المبدعين الإسلاميين، نلاحظ أن جرعة التأمل والفنون لديهم موظفة لخدمة العلم المادي، الأمر الذي لا نلاحظه كثيرًا في الغرب وإن كان موجودًا في العصور المبكرة للنهضة المتأثرة بالإبداعات العلمية المادية الإسلامية، ثم أخذت تقل وتقل حتى كادت تختفي في عصرنا الحاضر.

ويمكننا القول إن العالم الإسلامي بالنسبة للعوالم الأخرى كان الأقرب للاتزان بين العالم الروحي والمادي، رغم تنازله عن بعض مثاليات الجماعة الإسلامية الأولى.

التطور الوجداني والمادي في الغرب قبل عصر النهضة:

من المعروف أن التراث الديني جزء مهم من حضارة الإنسان.. ولكن قد يحدث أحيانًا خلل في حجم هذا الجزء المهم جدًّا بالنسبة للأجزاء المكونة لحضارة الإنسان سواء بالزيادة أو النقصان، وينعكس ذلك دائمًا بالسلب على المجتمع الذي يعيش هذا الخلل.

ففي أوروبا وقبل الإصلاح الديني، كان هذا الجزء يملأ حياة الإنسان العادي بنسبة كبيرة جدًّا فحدث التعصب والإرهاب الفكري والمادي وإثارة المشاعر الدينية وعادة ما يكون ذلك في عصور الاضمحلال، وثمة مشكلة كبيرة يسببها التراث الديني (وليس الدين نفسه) عندما يبدو في بعض أجزائه متناقضًا في نظر الإنسان العادي، سواء كان هذا التناقض ظاهريًّا أم حقيقيًّا نتيجة شوائب مدسوسة على التراث الديني، فالإنسان العادي العميق الإيمان القليل الثقافة سوف يتوقف عند هذا التناقض لفترة قصيرة مبلبل الفكر، ولكن ما يلبث أن ينفض يده من المسألة برمتها مفضلًا الانقياد وراء الآخرين من رجال الدين

غير المؤهلين مثل ما هو واقع في المجتمعات الإسلامية في القرن الواحد والعشرين، كأن التاريخ يعيد نفسه بصورة إسلامية، هؤلاء غير المؤهلين قد يحلو لهم تعقيد الأفكار وتضخيم الشروح والإضافات؛ ليؤكدوا أهميته في عيون العامة، وبتكرار ذلك يتعود الإنسان العادى على عدم احترام عقله رويدًا رويدًا ويتحول إلى متفرج ليس بالنسبة للمسائل الدينية فحسب بل والدنيوية أيضًا.

ولا أريد أن أدخل في هذا الموضوع الشائك، وإنما أشير إلى أن شغل العقل العادي بكثير من المسائل الدينية يرهقه أولًا، ثم يصير الاستسلام صفة غالبة، فإذا عدنا لنجاح حركة الإصلاح الديني في أوروبا التي مهدت لها حركة الإنسانيين في القرن الرابع عشر نجد أن الإصلاحيين ومشجعيهم تشبثوا بالعقل والمنطق وحرية الإنسان في محاجات الكنيسة وسلطتها على الإنسان وقد ردت الكنيسة بإصلاح ديني كاثوليكي مضاد يتضمن بعض التراجع عن مكانتها السابقة، الأمر الذي سبب استمرارها ومنع هزيمتها تمامًا أمام الإصلاحيين، وفي أثناء ذلك الصراع قدم كل طرف أفضل ما عنده من أسانيد منطقية للشعب الأوروبي، ورغم كل التجاوزات والضحايا فإن الشعوب هي التي استفادت باعتيادها على التحليل العقلي الذي خوطبت به من كلا الفريقين، ووجد الإنسان العادي نفسه مشاركًا وليس متفرجًا. والحقيقة أن هذا الصراع لم يكن للدين نفسه دخلٌ فيه وإنما كانت سلطة الكنيسة وسيطرتها محل النقد والجدل، وإن تحرير العقل من الهيمنة كان هو الهدف، ولك أن تتخيل أيها القارئ عندما انشغل عامة الناس في أثناء الصراع بين البابوات والملوك في مسألة السمو أيهما أسمى من الآخر البابوية أم الإمبراطورية؟.. التي يمكن ترجمتها إلى مسألة أخرى الدين أم الدنيا، أو وجه آخر هو نهتم بمشكلات الواقع المعاصر... أم ننتظر ملكوت السماء، هل الإنسان

مسئول عن تغير واقعه إلى الأفضل أم أنها مسئولية المسيح عندما يهبط؟.. وهكذا..

إن رجال الدين الكلاسيكيين بحكم دراساتهم الكهنوتية المغرقة في القِدم كانوا يعيشون ما يقرءون من ثقافة بل يكادون يتقمصون طقوس القديسين والرسل، وبلغ الأمر في عصور الظلام الأوروبي.. أنهم كانوا يعدون عدم الاستحمام فضيلة ودليلًا على الزهد، فقد جاء في تزكيه أحد رجال الدين لأحد المناصب أنه لم يستحم في حياته إلا مرة واحدة، لذلك كانت وقفة الشعوب الأوروبية مع رجال الدين ضرورة لتحرير العقول والنفوس من الخرافة والسيطرة باسم الدين، خاصة عندما تتحول الدعوة الدينية لفرض صور معيشية في قرون سابقة فتقليد السلف الصالح في أسلوب المعيشة أمر بالغ الخطر، وانتقل هذا المشهد حاليًا لمعظم العالم الإسلامي، حيث يجعل الإنسان يمشي في واقعه وعنقه ملوية إلى الوراء، عادة ما يكون ذلك على حساب عمق الإيمان؛ حيث ينشغل العقل الساذج بالشكل فقط، فقد حدث في الغرب في العصور الوسطى أن كانت كل الأمور الدينية والدنيوية في أيدي الكنيسة متمثلة في البابا والقساوسة والرهبان، وفي عهد البابا أنوسنت الثالثة (1198م - 1216م) بلغت البابوية أقصى قوتها حتى لقد قال هو أنه لا خلاص لإنسان في العالم ما لم يخضع للبابا، فأنا قيصر وأنا الإمبراطور الحقيقي صاحب السيادة على جميع أمراء الأرض.. إن استقلال الكنيسة عن كل السلطات وطاعة الناس العمياء للكنيسة ورجالها ونظرة الناس لها كشيء مقدس يعلو على النقد وسلطة العقل؛ جعل الكنيسة تفرض سلطانها وتدخل بين المرء وربه!.. وتصادر الأفكار وتحارب العلم وتقف حجر عثرة في طريق التنمية والتقدم، كل ذلك من أجل حماية نفسها ومركزها، وحرصًا منها ومن رجالها على الثروات الهائلة التي

كانت تستحوذ عليها بكل الوسائل، وكذلك على المناصب الهامة التي كانوا يشغلونها في الكنيسة أو الدولة. أما عن التدين فكان رجال الكنيسة أبعد ما يكونوا عنه، لا يهتمون إلا بظواهره من دون جوهره ولبه، ولا يحثون الناس إلا على اقتناء مخلفات القديسين والرسل وصورهم والحج إلى مدافنهم وتعذيب الناس لأجسادهم وتلاوة الأدعية في داخل الكنيسة باللغة اللاتينية التي كان يجهلها سواء الناس ولا يعرفون لها معنى، وكان فقراء الرهبان والقساوسة يعيشون عيش الكفاف.. أما ذوي الدرجات والمراتب الكنسية العظيمة إلى جانب ما كانوا يجمعونه من بيع صكوك الغفران إلى الناس في مختلف الأمم الأوروبية كانت تلك الصكوك في بادئ أمرها عفوًا يُمنح من البابا إلى المذنبين إذا ما اعترفوا بذنوبهم وندموا عليها فيرفع بذلك عقاب الكنيسة عن مشتري هذه الصكوك، ثم وجد البابوية في عملية بيع الصكوك موردًا ضخمًا فتوسعت في بيعها حتى أخذ الناس يعتقدون أنها تعفيهم من عقاب الكنيسة وعقاب الآخرة معًا، فصار الناس يشترونها من أجل موتاهم أيضًا كي تُغفر لهم ذنوبهم..

هذا التدني في التطور الوجداني والديني كان قائمًا ولكن أسبابه عديدة ومتشعبه، من وجهة نظري عدم تكون الجماعة المسيحية المثالية وفاعليتها في إدارة شئون الناس كما حدث بالنسبة للعالم الإسلامي، بالإضافة إلى أن المبادئ والقيم المسيحية لم تعترف بدرجة كافية بازدواجية العالم والحياة ولم تتعرف على النموذج الواضح في الجماعة الإسلامية ألا وهي في حالة غضب مسبق وكراهية ممنهجة من قادة الكنيسة. ومن ثم فإن التعاسة العامة والتوتر والتعصب كانت هي القواسم المشتركة لشعوب أوروبا، وصَاحَب ذلك تقدم مادي محدود للغاية حتى القرن الثالث عشر

بظهور حركة الإنسانيين في القرن الرابع عشر التي مهدت للإصلاح الديني الذي كان له أكبر الأثر في النهضة الأوروبية.

فإذا حولنا البصر إلى إسبانيا وسكانها نجد أنها دولة كاملة النمو ومزدهرة ومجتمع حضاري كامل الأركان المادية والوجدانية. فجامعة قرطبة ضمت آلاف الأوروبيين في طلب العلم في كل فروعه. ومن قرطبة خرج ابن رشد مؤسس المذهب العقلي، ابن حزم في مناهج التعليم التجريبي وأول من فصل العلم عن الفلسفة. وكُتب الطب لا تحتوي إلا على مواد طبية ومنها خرج الزهراوي العالم الذي اخترع 200 آلة جراحة، منها جفت الولادة، ويكفي أن ضاحية قرطبة العاصمة واسمها الزهراء كانت مخصصة للطب وبها خمسون مستشفى ومكتبتها بها 250 ألف مخطوط في الطب.

إن الاسترداد يكون من يد غاصبة مستغلة ناهبة لخيرات البلاد لصالح شعوب أخرى، فهل هذا كان حال الدولة الأندلسية التي اعتدى عليها متعصبو أوروبا.

وسقطت أول حاضرة إسلامية مدينة طليطلة عام 1085م مع بدايات الحروب الصليبية، ثم سقطت عاصمة الدولة قرطبة 1250م ثم غرناطة التي صمدت طويلًا وكان يحكمها بنو الأحمر 268 عامًا تعاقب على عرشها 21 ملكًا، كان هذا الصمود ضد اتحاد كل ملوك إسبانيا والبرتغال، ومن ورائهم دعم البابوية وكان سقوطها في يناير 1492م.

واستغرقت حركة الاسترداد كما يسميها الأوروبيون من عام 1085م إلى 1492م. ومن وجهة نظري أنه كان عدوانًا أكثر منه تحريرًا، إلا أنه يجب الاعتراف بأن غزاة البحر المسلمين في القرن التاسع الميلادي قاموا بغارات على شعوب أوروبية بغرض السلب والنهب،

وهو من الأعمال السلبية التي زادت من حقد الحاقدين والمتعصبين، وتم استغلال ذلك بواسطة البابوية استغلالًا جيدًا.

وللتوضيح، من المعروف أن الاحتلال والغزو الاستغلال والسلب والنهب يسهل دائمًا التخلص منه بالقوى الوطنية أو القوى الإقليمية، وقد يستغرق ذلك مائة عام أو مائة وخمسين عامًا أو مائتي سنة. أما ما استغرقته حركة الاسترداد في التخلص من الحكم الإسلامي فكان نحو خمسة قرون منهم 268 عامًا أمام مملكة بني الأحمر في غرناطة، ولا يوجد في التاريخ حالة مشابهة، والسبب بسيط وواضح أن دولة الأندلس الإسلامية نجحت في إقامة دولة متحضرة متعددة الديانات، بلغت من الرقي المادي والوجداني درجة كبيرة.

ويمكن مقارنة احتلال الرومان لمصر والشام (نحو 6000 سنة) من ناحية البناء الحضاري بالبناء الحضاري العربي الإسباني إبان الحكم الإسلامي، الأمر الذي يشير إلى أن حركة الاسترداد لم تكن سوى عدوان على دولة كاملة النمو ومتحضرة.

خلاصة الفصل الرابع

في الجزء الأول من هذا الفصل، حاولت شرح حالة المجتمع الإسلامي المتأثر بالكثير من مبادئ الجماعة الإسلامية الأولى، وإن تخلت عن بعض الأساسيات فيها، مما سمح للاستبداد والالتفاف على القيم والأخلاق، وتخلت تقريبًا عن الشورى والقيادة الجماعية ومع ذلك حقق المجتمع ككل تقدمًا ماديًّا ووجدانيًّا في القرون الثلاثة الأولى، ثم بدأ الضعف التدريجي مما أغرى العالم المسيحي المتعصب والمتخلف ماديًّا ووجدانيًّا بالعدوان على العالم الإسلامي في نهاية القرن الحادي عشر، تحت زعم استرداد بيت المقدس

ومحاربة الهرطقة الإسلامية.

ولقد أشاع رجال الدين المسيحي أن المسلمين هم الذين احتلوا الشام ومصر، وكانت في أيدي المسيحيين من قبل، وأن المسيح يطالبهم باسترداد بيت المقدس، والحقيقة لم تكن كذلك؛ فقد احتل الرومان الوثنيون هذه الأرض العربية أولًا ثم اعتنق الرومان المحتلون المسيحية بعد أن عذبوا معتقديها ردحًا من الزمن قرابة ثلاثة قرون حتى تحررت الأرض العربية من الرومان الذين تصادف أنهم كانوا مسيحيين في ذلك الوقت، ولم تساعدهم الشعوب المسيحية العربية المخالفة لهم في المذهب كمصر التي ألجئوا فيها بابا الكنيسة المصرية للفرار منهم في الصحراء. فالقضية بعيدة عن الصراع الديني ولكن أوروبا فرضته؛ ولذلك فإن الحروب الصليبية تسمية مسيحية أما التسمية الإسلامية فهي حروب الفرنجة.

وكما هو معروف أن الحروب الصليبية في الشرق فشلت عسكريًّا، أما نجاح حركة الاسترداد في إسبانيا فيعود لشدة الكراهية والعدوانية التي تمكنت الكنيسة الكاثوليكية من حشدها ووراءها كل شعوب أوروبا ضد مجتمع مستقر متحضر لم تستطع روما أو القسطنطينية إقامته في الأراضي العربية المحتلة سواء في الشام أو مصر وسواء في فترة الوثنية أم فترة المسيحية. فحركة استرداد العرب لأراضيهم في الشام ومصر كانت عملية تحرير أرض وشعب من محتل غاصب مستغل، أما حركة الاسترداد فأرى أنها لم تكن سوى عدوان غاشم على شعب متحضر.

لقد استفاد الغرب في عصر بواكير النهضة بكل منجزات الحضارة الإنسانية التي حافظ عليها المسلمون وأضافوا إليها وترجموا واقتبسوا وطوروا، وكان نصيب المسلمين مع ذلك الحقد والكراهية

على الأقل حتى عصر الإصلاح الديني، ولو أن بعض آثار التعصب لاتزال قابعة في بعض الرءوس الأوروبية.

لقد فرضت الحروب الصليبية من نهايات القرن الحادي عشر إلى نهايات القرن الخامس عشر واقعًا دمويًا سواء في الشرق أو الغرب، ولم يحقق أيٌّ من الطرفين المسيحي والإسلامي نصرًا حاسمًا لصالحه، وإن كان ميزان القوى يميل بدرجة بسيطة لصالح العالم الإسلامي الذي طهَّر الشرق من الوجود الصليبي تمامًا وهزم عدوانه، وخسر في الغرب شبه جزيرة أيبريا وصقلية. وقد عوض الأتراك العثمانيون بعضًا من هذه الخسائر على الأرض عندما فرضوا سيطرتهم على شرق أوروبا حتى نهايات القرن السابع عشر عندما حاصروا فيينا عاصمة النمسا نفسها عام 1682م.

وما يعنينا هي التكلفة الباهظة التي وقعت على الشعوب المسالمة التي انتُهبت في غزوات خاطفة لمدن وسواحل كلا الفريقين المتصارعين، ومنها شعب الإسكندرية ودمياط وبيت المقدس وروما وشعوب أخرى. كل ذلك بسبب أفكار خاطئة وتدني وجداني ديني مسيحي وإسلامي، نتمنى الاعتذار عنه مستقبلًا.

الفصل الخامس: الحضارة الإنسانية المعاصرة

من المناسب في هذا الفصل أن نتعرض للمحة عن العصور الوسطى قبل الولوج لعصر النهضة الأوروبية وثورتها الصناعية، ثم عصر العدوان الاستعماري وعصر المشاكل العالمية الكبرى في القرن العشرين. وحصاد هذه القرون من الدماء المسالة والآلام والانحراف بالقيم الأخلاقية، في مقابل إشباع مادي وفير حققه التقدم التقني الكبير جدًّا. وبداية ومن دون الدخول في تفاصيل معقدة تاريخيًّا فمن المسلَّم به أن أوروبا اللاتينية انتزعت ريادة العالم منذ نهايات القرن السابع عشر بعد تحقيق انتصارات علمية وكشفية وعسكرية منذ نهايات القرن الخامس عشر حتى نهايات القرن السابع عشر، أعقبتها ثورة صناعية في القرن الثامن عشر، مهدت لقرن الاستعمار وهو القرن التاسع عشر، ثم قرن الصراعات الأوروبية في القرن العشرين، لذلك -وبإيجاز- سنوضح صورة العالم في هذه الفترات.

تمثلت التحولات الكبيرة في العالم بعد إنهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا 1492م في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام 1498م لضرب التجارة الإسلامية، وفي نفس الوقت تم اكتشاف القارة الأمريكية الذي كان له أبلغ الأثر في رفع الروح المعنوية وروح المغامرة لدى الإسبان والبرتغاليين، والرغبة في تعقب المسلمين المنهزمين حديثًا فيما يشبه روح صليبية جديدة استغلت تطوير أحد المهندسين البرتغاليين لهيكل سفينة أكثر رشاقة واستطالة أعطاها قدرة على المناورة أكبر، إلى جانب حمل مدافع أكثر على جانبيها... وفي سنوات قليلة أصبح الأسطول البرتغالي أقوى أسطول في العالم. كما تمكنت إسبانيا والبرتغال من تكوين إمبراطوريتين فيما وراء البحار بعد القضاء على حضارتين قائمتين وهما: حضارة

الأزتك والأنكا، حيث أبادوا معظم الهنود الحمر الوثنيين، وكان التغلب عليهم سهلًا ووحشيًا للتفوق الكبير في السلاح. وقلدهم في القرن الثامن عشر الإنجليز في أمريكا الشمالية، حيث فعلوا أبشع الجرائم ضد الهنود الحمر واستخدام الدين والتبشير بالمسيحية كغطاء لأبشع أنواع النهب والسلب والاستيلاء على أرض الغير وثرواته، خاصة فضة المكسيك التي نهبها الإسبان. والغريب أن بعض حكام العالم الإسلامي، فعلوا في القرن السادس عشر ما يشبه ذلك في الهند عندما أسس بابر إمبراطورية المغول بدعوى نشر الإسلام في الهند الوثنية، وقريبًا من ذلك ما فعله الأتراك العثمانيون عند اجتياحهم البلقان في أوروبا الشرقية، وسواء الترك أو المغول دخلوا الإسلام مؤخرًا ولكنهم غالوا في تعصبهم الديني للإسلام، خاصة الفهم الخاطئ عن الجهاد في سبيل الله، لم تكن هذه الشعوب تعرف لغة القرآن. وفي الغرب أيضًا نجد أن القبائل الجرمانية غير المتحضرة بل والبربرية أسقطت روما في القرن الخامس الميلادي ثم اعتنقت المسيحية وتعصبت لها، وغالت في ذلك. كذلك فعلت قبائل الآفار والهنفار والفايكنج الذين كانوا يهاجمون الإمبراطورية الرومانية، اعتنقوا المسيحية وغالوا في تعصبهم لها. وعودة قليلًا للوراء نجد السلاجقة الأتراك أسلموا مؤخرًا في آسيا الصغرى واستنزفوا الإمبراطورية البيزنطية قبل سقوطها بثلاثة قرون في حملات دينية جهادية إسلامية، وفي عام 1071م هزموا الإمبراطورية البيزنطية، وكما يقول المؤرخ فيشر: هزيمة لم يحدث مثلها في تاريخ الحروب البيزنطية في موقعة ملاذكرد بأرمينيا وأسروا إمبراطور بيزنطة رومانيوس وذاع الخبر وكان صدمة دينية للعالم المسيحي آنذاك فماذا حدث كردّ فعل، تعصب ديني أكثر وسقوط طليطلة 1085م، وإعلان الجهاد المقدس في أول حملة صليبية على الشرق 1095م. كل ذلك نتائج طبيعية لمقدمات

طبيعية.

تعصب ناتج من شعوب حديثة عهد بالإيمان سواء الإسلام أو المسيحية بالإضافة إلى أطماع دنيوية. وبالنسبة للعالم المسيحي فقد اعتبر المسلمين وثنيين باعتبارهم يعبدون محمدًا، وترسخت هذه الفكرة في الرأي العام المسيحي، فلا فرق بين الهنود الحمر والمسلمين ربما لحشد روح المقاومة ضد الأتراك المتعصبين إسلاميًّا والناجحين عسكريًّا في شرق أوروبا وعلى سواحل البحر الأسود وشبه جزيرة القرم، إلا أن الروس بنفس الدوافع الدينية في أواخر القرن السادس عشر قاموا بفتح وادي الفولجا حتى بحر قزوين ضد التتار المسلمين، ثم انطلقوا من غرب سيبريا إلى المحيط الباسيفيكي.

ونلخص الأسباب الرئيسة لحدوث عصر النهضة حتى القرن السابع عشر في الآتي:

1 - دهشة الشعوب الأوروبية المسيحية من فشل الحروب الصليبية تحت قيادة الكنيسة الكاثوليكية.
2 - الجدل الواسع حول سلطة الكنيسة الذي أثاره العلمانيون وردود رجال الكنيسة، وقدم كل فريق أفضل ما لديه، واستفادت الشعوب من هذا الجدل العلني.
3 - ظهور حركة الإنسانيين في القرن الرابع عشر والدعوة لإعادة النظر في أهداف الحياة نفسها ودور الإنسان فيها.
4 - ظهور المذهب البروتستنتي والإصلاح الديني في القرن السادس عشر.
5 - سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين عام 1453م

وإحياء العداء والكراهية ضد الإسلام والمسلمين.

6 - تشوية صورة الإسلام والمسلمين كوثنيين؛ لأنهم يعبدون محمدًا مثلهم مثل الهنود الحمر.

7 - الانتصارات الإسبانية البرتغالية ضد الحكم الإسلامي في شبه جزيرة أيبريا والقضاء عليه 1492م.

8 - اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح للتحكم في التجارة العالمية.

9 - اكتشاف القارة الأمريكية بواسطة كولومبس في أوائل القرن السادس عشر، وقيام الإسبان والبرتغاليين بتكوين إمبراطوريتين فيما وراء البحار. كما اكتشف الإسباني الفارودي ماتاندا أستراليا 1567م، غير أن الأسطول الإنجليزي احتلها 1788م.

10 - الكشوف العلمية والتقنية المغذية للصناعات العسكرية، خاصة الأساطيل البحرية، إلى جانب اكتشاف الطباعة والاعتراف بنظرية كوبر نبكوس للنظام الشمسي.

عصر النهضة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر:

طورت بريطانيا في منتصف القرن الثامن عشر أفران صهر الحديد التي قفزت بنوعية الصلب قفزة كبيرة، وقد امتدت حركة التصنيع عبر القتال الإنجليزي حتى نهر الدانوب. ولكن درجة النمو الصناعي كانت تختلف من بلد لآخر، وكان أول استخدام تطبيقي لقوة البخار على يد العالم الإنجليزي جيمس وان 1769م. وأول قاطرة بخارية اخترعت أيضًا في إنجلترا 1774م، أما الصورة النهائية لها فظهرت عام 1804م، أما في فرنسا فقد ظهرت أول عربة تعمل بالبخار، وكان لها ثلاث عجلات 1796م، كما ظهرت المخرطة وآلة حلج القطن

1793م وآلة غزل النسيج 1764م في إنجلترا.

وخلاصة القول إن الحركة العلمية نشطت نشاطًا عظيمًا ابتداء من القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر ممهدة للثورة الصناعية في نهايات القرن الثامن عشر، هذا القرن الذي أفرز أيضًا في نهايته أكبر ثورة شعبية أثرت في تاريخ البشرية وهي الثورة الفرنسية، وقد بدأ التنافس بشكل حاد بين الدول الأوروبية وخاصة بين إنجلترا وفرنسا في كافة الميادين سواء كان ذلك في العالم القديم أو الجديد أو فيما وراء البحار. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر نجحت الثورة الأمريكية في إضافة مجتمع غربي جديد في قارة جديدة ذات موارد ضخمة.

وحتى نستطيع أن نتخيل قوة الاقتصاد الأوروبي، سوف نأخذ على سبيل المثال إنجلترا في عصر الثورة الصناعية في أرقام محددة: زاد إنتاج الحديد الخام أربع مرات خلال 1749 - 1788م، ثم أربع مرات أخرى حتى عام 1808م، ثم بلغ ثلاثين ضعفًا في القرن السابع عشر، وزادت واردات القطن الخامس خمس مرات خلال 1870 - 1900م، وثلاثين ضعفًا في القرن التاسع عشر. وقد حقق الاقتصاد القومي من 523 مليون جنيه إسترليني إلى 1551 مليون جنيه إسترليني. هذه الأرقام من كتاب Early modern Europe 1500. 1789. H.. G Koen lgs berger.

العدوان الأوروبي كظاهرة في القرن التاسع عشر:

يسمي البعض هذا القرن قرن الاستعمار، وأرى أن كلمة الاستعمار غير مناسبة؛ لأنها تخفف من الحقيقة العدوانية لاحتلال أراضٍ ونهب

ثروات الغير.

وهي ظاهرة سياسية قديمة، تتمثل في عدوان شعب على جيرانه الضعفاء.

وقد مارست ذلك الحضارات القديمة، إلا أن أول شعب أو أمة أضافت على العدوان صورة الاستعمار المنظم هم الرومان، فهم أول شعب رسم لنفسه سياسة عدوانية للاستغلال المنظم طويل الأمد للبلاد التي يضعون أيديهم عليها، هذا ما كان في عصور ما قبل النهضة الأوروبية، حيث ظهر الاستعمار الحديث نتيجة للغنى والنمو العلمي والتفوق التقني لشعوب أوروبا اللاتينية بعد نهضتها وثورتها الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر وظهور الحاجة للأسواق والموارد، فكان العدوان على الأمم الضعيفة أينما وجدت وفقًا لفكرة أجدادهم الرومان الوثنيين، وهي الاستغلال المنظم طويل الأمد لنهب خيرات الأمم وتحقيق أكبر قدر من الرفاهية لشعوبهم. وقد بدأ الإسبان والبرتغاليون الاستعمار الحديث مستغلين العاطفة الدينية لنشر المسيحية كستار لعمليات النهب فأنشئوا مراكز عسكرية على السواحل لتنفيذ ذلك.

ثم جاء بعدهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز، وأخذوا في غزو البلاد التي لا تملك سلاحًا والمتأخرة علميًّا وثقافيًّا، وفي نهاية القرن التاسع عشر صار الاستعمار جزءًا ثابتًا من سياسات الدول الأوروبية القوية عسكريًّا، وقد ساعد على انتشار هذه الظاهرة الاستعمارية الحكام المحليون في البلاد الإسلامية بسبب خلافاتهم وتنازعهم مع بعضهم البعض واستعانتهم أحيانًا بالأوروبيين الذين يسارعون بإرسال جيوشهم لاحتلال البلاد.

وقد اشتعل تنافس طويل بين الدول الاستعمارية على المستعمرات

وانتهت قيادة الحركة الاستعمارية في إفريقيا وآسيا في أيدي الإنجليز والفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر، مع اشتراك طفيف من جانب البرتغال وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا.

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر أصبح من الواضح انقسام العالم إلى قسمين: القسم الأول أوروبي أمريكي متعلم غني، قوي، يسود البحار والأرضين، وقسم فقير منقسم على نفسه. وهذا الاختلاف الكبير في المستوى هو الذي ساعد على اتساع ظاهرة الاستعمار. وكان من المنتظر أن بلاد الإسلام تستطيع مقاومة موجة الاستعمار بفضل ميراثها الثقافي الضخم، ولكن هذا الميراث كان لدى الشعوب وليس عند السلطة الحاكمة؛ ولهذا ظلت الشعوب إلى حد كبير محتفظة بديانتها ولغتها وحضارتها، بينما انهارت الحكومات وتهاوت بسرعة عندما اصطدمت بالقوى الغربية المسلحة بالعلم، والمنظمة سياسيًّا وعسكريًّا، وقد قاومت الشعوب الشرقية بمخزونها الحضاري القوى الاستعمارية، وتحرر الكثير منها قبل منتصف القرن العشرين.

ظروف العدوان الأوروبي في القرن التاسع عشر:

بعد ظهور الثورة الصناعية في أوروبا وتحول الاقتصاد القومي لحركات التصنيع وظهور الحاجة لمزيد من الموارد، تأصلت لدى جميع الدول الأوروبية فكرة استغلال الشرق، واستعمار إفريقيا والقضاء على النفوذ التجاري والسياسي للعالم الإسلامي فتمكنت إنجلترا من السيطرة على شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر، وكذلك هولندا على إندونيسيا، وروسيا على ولايات آسيا الوسطى الإسلامية واتخذت معظم دول أوروبا مواطن أقدام على سواحل إفريقيا الشرقية والغربية، وقد سادت في القرن التاسع عشر نظريتان استعماريتان في السياسة الدولية:

- **الأولى: النظرية البيولوجية السياسية:** بمعنى حق الدول الكبرى في التهام الدول الصغرى، وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تذوب داخل كيانات أكبر. وقد لقيت هذه النظرية تأييدًا واسعًا كمبرر لضراوة الزحف الاستعماري في مناطق كثيرة من العالم.

- **الثانية:** وهي إباحة تملك الأقاليم التي تسكنها شعوب متخلفة غير مسيحية أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة العصرية خارج القارة الأوروبية، واعتبار هذه الأقاليم خالية يمكن تملكها لأول دولة تطؤها سواء بقواتها المسلحة أو ببعض من أفرادها، بحيث يتمكنون من رفع علم دولتهم فوق جزء من هذه الأقاليم، وأن هذه الشعوب والقبائل لا حقوق لهم ولا ينتمون للمجتمع الإنساني، ووصل الأمر لاصطياد الأفارقة وخطفهم من مواطنهم الإفريقية وشحنهم كعبيد لأوروبا وأمريكا مقيدين بالأغلال مع الحيوانات بلا أي مشاعر للرحمة.

وقد وضع مؤتمر برلين 1884م عدة شروط لهذا الاستيلاء حتى يحدد جميع آثاره القانونية في المجال الدولي، ومن الطريف أن روسيا حاولت أن يكون لها مستعمرة إفريقية في أواخر القرن التاسع عشر في القرن الإفريقي تحت شعار حماية المسيحية في الحبشة؛ فأبحرت من ميناء أودسا الروسي على البحر الأسود باخرة عليها ثلة من العسكريين وبعض الرجال والنساء والأطفال ورجال الدين بقيادة راهب قوقازي، ووسط شعور فياض من الحماس الديني أبحرت الباخرة متجهة إلى البحر الأحمر عبر قناة السويس ولما بلغت الباخرة ميناء مصوع رفضت السلطات الإيطالية السماح لها بالرسو بها، فاستمرت مبحرة جنوبًا حتى رست في ميناء مهجور تابع لمستعمرة أوبوك الفرنسية، وقام الكاهن القوقازي وكان اسمه

أتشينوف برفع العلم الروسي وسط حماس فياض من أتباعه وأناشيد وترانيم دينية.

ولكن ما لبثت السلطات الفرنسية أن أعادته مع أفراده العسكريين بعد اشتباك صغير، قُتل فيه أربعة من المغامرين الروس وسمح للرهبان فقط بالدخول إلى الحبشة، وأُنزل العلم الروسي من فوق الميناء المهجور.

وقد توسعت بريطانيا في إفريقيا الاستوائية، فضمت نيجيريا وساحل الذهب وسيراليون وأوغندا وكينيا والصومال، واحتلت مصر عام 1882 ثم السودان، أما فرنسا فقد أسست في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مستعمرات واسعة في إفريقيا وآسيا، وبعد أن فقدت الكثير من مستعمراتها في القرن السابق وكان انطلاق فرنسا إلى ميادين الاستعمار خارج أوروبا، إرضاء لكبريائها ووسيلة لتستعيد بها مكانتها كدولة كبرى، خاصة بعد هزيمتها عام 1870 في الحرب السبعينية. ومعنى ذلك أن قهر الشعوب الأقل تحضرًا أصبح دليلًا على رفعة المكانة الدولية في العرف الأوروبي، وكان الاستعمار في إفريقيا يتم في كثير من مواطنه على حساب ممالك إسلامية في غرب إفريقيا مثل النيجر وما يليه، علاوة على ولايتي الجزائر في عام 1830م، وتونس 1881م، والمغرب في أوائل القرن العشرين. أما في آسيا فقد استولت فرنسا على فيتنام (الهند الصينية)، وقد فعلت نفس الشيء بلجيكا وإيطاليا وألمانيا في إفريقيا.

كان الغرب بصفة عامة يزداد ثراء والشرق يزداد فقرًا وقهرًا، وبلغ الغرور بالإنسان الأوروبي أوجه في نهايات القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين، والغرور يؤدي بالضرورة للعنصرية والتعصب ضد الغير والغير هنا كل مجتمع غير أوروبي أولًا وغير مسيحي ثانيًا.

والمسيحية هنا لا تعني المبادئ والقيم المسيحية الأصلية التي كادت أن تختفي، وإنما تعني الانتماء للتاريخ المسيحي المشترك.

وكان من أثر الشعور بالحرية والتحرر من القيود كلها والشعور بالقوة والإنجاز والتفوق ظهور نظريات علمية وإنسانية جديدة تُعلي من شأن الإنسان بصفة عامة، وإن كان على حساب الإيمان بالخالق.. كيف؟

فاجأ داروين الأوروبيين بنظرية النشوء والارتقاء المناقضة لنظرية الخلق الإبداعي لله، وأن الإنسان حيوان تطور وتكيف حتى وصل إلى ما هو عليه، بل زاد العالِم كون بنفي وحدة الأصل الإنساني؛ حيث ادعى أن الإنسان الحديث تطور إلى ما هو عليه في أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة. وقد ذكرنا ذلك في الفصل الأول. كما ظهر التفسير المادي للتاريخ حسب النظرية الماركسية العلمية، ثم ظهر فرويد بتفسيراته للسلوك الإنساني. كل هذه النظريات تميل بالعقل الأوروبي خارج دائرة الإيمان بالدين والإله الخالق، خاصة أن المتيسر للإنسان الأوروبي عن الدين خاص بما جاء في الكتاب المقدس سواء العهد القديم أو الجديد. بالإضافة إلى الرسائل والأطروحات الكنسية الكاثوليكية أو حتى المذهب البروتستانتي، ومع الاحترام الكامل لهذا التراث فقد أضيف إليه كم هائل من الأكاذيب والافتراءات ضد العقيدة الإسلامية الوثنية من وجهة نظرهم؛ لأن المسلمين يعبدون محمدًا وقد كان السبب الأساسي لهذا التشويه المقصود والشرير هو تبرير العدوان على بلاد الإسلام ذلك رغم أن الأوروبيين ترجموا العديد من الكتب العربية الإسلامية في مختلف العلوم. فكان التشويه فجًّا وساذجًا، مما جعل بعض المفكرين في القرن التاسع عشر مثل جوتة وتولوستويدى يدينون هذا التعصب، كذلك فعل برنارد شو الإنجليزي في القرن العشرين.

أقبل القرن العشرون والتنافس الأوروبي على أشده، خاصة بين إنجلترا وفرنسا مع وجود عدة إمبراطوريات متهالكة روسيا القيصرية والإمبراطورية العثمانية وإمبراطورية النمسا والمجر، وأصبح واضحًا الرغبة في الإجهاز على ممتلكات الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها. وفي عام 1914 نشبت الحرب العالمية الأولى وانتهت 1918م بفوز إنجلترا وفرنسا وخروج الإمبراطوريات المتهالكة من صناعة التاريخ، فحدثت الثورة الوطنية الروسية الأولى فبراير 1917م، والثانية نوفمبر 1917 التي أدت لاستيلاء الشوعيين على الحكم. واقتسمت إنجلترا وفرنسا الشرق العربي بعد هزيمة تركيا بمعاونة بعض الحكام العرب الذين أسهموا في هزيمة دولة الخلافة الإسلامية مقابل مكافآت ودعوة بإنشاء خلافة عربية لم تتحقق. وهُزمت ألمانيا ودخلت في اضطراب سياسي انتهى بعد عدة سنوات بظهور النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، والدكتاتورية الفرانكونية في إسبانيا، وظهور حركات سياسية لإنشاء وطن يهودي (الصهيونية).

عصر المشكلات الكبرى في أوروبا:

مع بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، وصعود هتلر كدكتاتور لألمانيا وزعيم للحزب النازي العنصري وأطماعه السياسية في القارة الأوروبية، وظهور موسوليني في إيطاليا زعيمًا للفاشية وطموحاته السياسية والعسكرية في الشمال الإفريقى والحبشة، والاتحاد السوفيتي الذي أقام ستارًا حديديًّا لبناء قوته الذاتية في نظام شيوعي جديد تمامًا ومختلف عن النظام الرأسمالي في باقي أوروبا، وانغلقت الولايات المتحدة على نفسها لبناء قوة اقتصادية. ورغم البداية الصحيحة للثورة الأمريكية ودستورها المناسب لنشأة

المجتمع الأمريكي ونجاح الرئيس لنكولن في تحرير العبيد، تلك الوصمة في التاريخ الأنجلوسكسوني، فإن المجتمع ظل يحمل جينات العنصرية لوقت طويل، فالمواطن الأول تحدده كلمة WASP اختصار White - Anglo Sacson - protestant أي أبيض - أنجلوسكسوني - بروتستنتي.

وفي الثلاثينيات من القرن العشرين، كان الموقف الأوروبي شديد التعقيد سياسيًّا واقتصاديًّا يحكم هذا الوقع طموحات ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، ومحاولات فاشلة لاستيعاب ذلك من قِبل فرنسا وإنجلترا، وتوتر عام في القارة، انتهى بنشوب الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939م بهجوم ألمانيا على بولندا، وتتوالى الأحداث العنيفة والدامية حتى مايو 1945م، وضحايا بلغت نحو 60 مليونًا من البشر. بين الحربين العالميتين المتعاقبتين فاصل زمني 21 عامًا.

دخلت روسيا الحرب مع الحلفاء ثم أمريكا بعد الهجوم الجوي الياباني على الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر، وانتهت الحرب بكارثة إنسانية وهي استخدام القنابل الذرية ضد اليابان في أغسطس 1945م بوحشية غير مبررة؛ حيث كانت اليابان مستعدة للتسليم، فلماذا هذه القسوة غير المبررة التي لا يمكن صدورها إلا من حضارة أساسها عدواني وشرير، عندما قامت بريطانيا وأمريكا بأكبر غارة جوية على مدينة درسدن الصناعية بألمانيا ومحتها من الوجود من دون أية مقاومة، حيث كانت ألمانيا قد استسلمت فعلًا قبل ذلك ب 24 ساعة فلماذا كان ذلك!!

فرح الكثيرون في العالم بانتهاء الحرب العالمية الثانية، ولكن الآلام والمعاناة التي سببتها هذه الحرب كان من الصعب التخلص منها فبقيت آثارها ولم تمض ألا سنوات قليلة حتى بدأت سلسلة من

الحروب المحلية في فلسطين لإنشاء الوطن اليهودي تنفيذًا لوعد بلفور عام 1917م وتعويضًا عن معاناة اليهود تحت حكم النازي. ولكن المهم أن ذلك تم وفق النظريات الصادرة عن مؤتمر برلين. ولكن وجود إسرائيل في هذه المنطقة من العالم مصلحة غربية لزرع كيان يوقف نمو المنطقة العربية نحو التقدم، وقاعدة للسيطرة على هذا الجزء من العالم.

وفي الشرق الأوسط، تم تقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتين الهند وباكستان؛ ليخلق بؤرة صراع سياسي حتى اليوم أثمرت ثلاثة حروب بينها، وتحولتا إلى دولتين نوويتين. وفي الصين قامت الحرب بين الشيوعيين وقوات الجنرال شاي كاي تشيك رئيس حكومة الصين الوطنية، انتهت بانتصار ماوتسي تونج وإعلان دولة الصين الشعبية عام 1949م، وظلت حكومة الصين الوطنية حتى اليوم في جزيرة فرموزا قرب ساحل الصين الجنوبي، وفي عام 1950م نشبت حرب كوريا بين الغرب والصين الشيوعية، ثم حرب السويس الثالثة أكتوبر 1973م. أسفر ذلك كله عن نحو 40 مليونًا من الضحايا.

أي أن ضحايا القرن العشرين في ظل هذه الحضارة اللا أخلاقية نحو 100 مليون نسمة، فأي عار أكثر من ذلك، وأصبح العالم في النصف الثاني من القرن العشرين مليئًا ببؤر التوتر الديني والعنف والإرهاب السياسي والعرقي، ويقسم المناطق إلى مناطق نفوذ ومناطق صراع.

في نظام الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والغرب بزعامة أمريكا، حتى انتهت هذه الحرب بسقوط الاتحاد السوفيتي والشيوعية وتفكك دولها قرب نهاية القرن العشرين. ومع بداية القرن الواحد والعشرين ظهر التطرف الإسلامي الذي اعتبرته أمريكا العدو

الأول بعد كارثة 11 سبتمبر 2001م الإجرامية المحاطة حتى اليوم بكثير من الغموض.

إن إحلال الغرب الإسلامَ محل الاتحاد السوفيتي كعدو رغم عدم توافر الشروط الموضوعية لذلك- يكشف عوارًا آخر في الحضارة المعاصرة ألا وهو ضرورة وجود عدو أيًّا كان؛ لكي يستقر وتستمر عجلة النشاط السياسي والاقتصادي للمجتمعات الغربية، وافتعال ذلك عمل غير إخلاقي، ولكنه طبيعي في الحضارة المعاصرة، التي تغزو أفغانستان لمحاربة الإرهاب وتدعم في نفس الوقت قوى إرهابية في مناطق أخرى من العالم. غزت أمريكا العراق تحت دعوى امتلاكها أسلحة دمار شامل، وتبين أن ذلك لم يكن صحيحًا؛ وإنما الهدف هو البترول ونشر الفوضى في العراق وتمزيقه مذهبيًّا وعرقيًّا وتدمير الجيش، وهذا هو حال العراق بعد عشر سنوات من الغزو.

جرائم كثيرة تُرتكب تحت مبررات ساذجة.. لقد حوكم الرئيس العراقي صدام حسين وأُعدم شنقًا؛ لما ارتكبه من جرائم ضد شعبه، ولكن لماذا يُعدم في أول أيام عيد الأضحى، يوم النحر، ويُذاع الإعدام على الهواء صباح عيد المسلمين، أخشى أن يكون راء هذا التوقيت جريمة أخرى معنوية تضيفها الحضارة المعاصرة لقائمتها السوداء ضد كل ما هو إنساني المعنى.

لقد تبنت أمريكا أجندة الشرق الأوسط الجديد منذ عام 2003م، والحصيلة كما نراها واقعًا ملموسًا فوضى شاملة أبرياء يقتلون في العراق وسوريا والصومال وليبيا وتونس وفلسطين ومصر. وبعيدًا عن السياسة وأساليبها القذرة ضد الشعوب نتساءل: هل توجد مقاومة حضارية لهذه القوى الشريرة؟ الإجابة: نعم وجدت المقاومة وفي بلد الحضارة والتاريخ مصر التي قال شعبها "لا" مستلهمًا

مخزونه الحضاري الذي يلجأ إليه في الشدائد، "لا" العنف و"لا" الإرهاب المحلي والإقليمي والعالمي. فقد نزل المصريون غير المنتمين سياسيًّا البسطاء إلى الشوارع بحشود غير مسبوقة على مستوى العالم 33 مليونًا في 30/6/2013؛ ليقولوا لا للهيمنة ولا للإرهاب الديني المتحالف مع أصحاب أجندة 2003 الأمريكية. ما يعنينا أن مهما بلغت القوة من الجبروت، ومهما أوتيت القوة غير الأخلاقية من إمكانات الخداع والتزييف، فإن الشعوب الصادقة في حسّها المتحضرة تكسب في النهاية، ويا ليت العالم يتبنى فكرة أن الجرائم بأنواعها لا تفيد.

وبدأ عالم أحادي القطبية تهيمن عليه الولايات المتحدة عسكريًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا واستخدمت التكنولوجيا في إحكام السيطرة على العالم هذه هي حصيلة الحضارة الغربية في القرن العشرين حضارة التكلفة والعائد - المنفعة والمصالح المتبادلة من دون اعتبار للبعد الأخلاقي. هذا لا ينفي الإنجازات المادية الهائلة وكمية المعارف الضخمة التي نتجت عن هذه الحضارة في القرون الثلاثة الأخيرة، إلا أن ذلك كله كان على حساب الإنسان كشخصية متفردة ووجدانيات لم تستفد منها هذه الحضارة المادية التي تغلب عليها مفاهيم الإلحاد بأنواعه إلحاد صريح مثل إلحاد المنطق الفلسفي للنظرية الماركسية أو إلحاد ضمني ناتج عن اليأس من البحث عن الإله كما يُفهم من الفلسفة العدمية وحصيلة ذلك توتر وقلق وعدم رضا عن النفس والغير وعدم الاطمئنان للمستقبل والأسس الأخلاقية التي لم تحظ بكثير من الاهتمام هي مسألة في غاية الأهمية للإنسان المعاصر. ولتوضيح ذلك نستعرض العلاقة بين العقل والأخلاق فنقول: لا توجد علاقة مباشرة بين العقل والأخلاق؛ فالعقل يستطيع أن يختبر العلاقات بين الأشياء، ولكن لا يستطيع إصدار حكم عندما

تكون القضية استحسانًا أو استهجانًا أخلاقيًّا، مثل استحالة الوصول إلى تفرقة علمية بين الفن الرفيع والهابط.

لـذلك، فـإن المبـادئ الثلاثـة للثـورة الفرنسـية: الحريـة، والإخـاء، والمساواة، لا يمكن استنباطها علميًّا؛ لـذلك فـالأخلاق ليست من منتجات العقل. وفي ظني أن القسم الأكبر من المعاناة التي يعانيها الإنسان المعاصر التي عبرت عنها الفلسفة العدمية لألبير كامو هي بسبب غيبيـة البعد الأخلاقـي بمعنـاه الـديني خـارج دائـرة مبـادئ المنفعة والتكلفة والعائد والقوانين المنظمة لحركة المجتمع.

فالأخلاق تنتمي إلى الفطرة الدينية عند الإنسان هذا الذي لا وجود لـه كإنسـان إلا بـوجود إلـه، والأخـلاق لا يمكـن إخضـاعها لمعـايير المنفعة... نعم قد يكون السلوك الأخلاقي مفيدًا ولكن لا يؤدي ذلك إلـى أن شيئًا يصبح أخلاقيًّا لأنه مفيد، فلو كانت الفضيلة مربحة لسارع إليها الانتهازيون، وطبقًا لأحد الإحصائيات الأمريكية فإن 90٪ من جرائم السطو لا يتم التوصل لمرتكبها؛ أي إن الجريمة مربحة، هنـاك جـرائم مقننـة كـالحروب العدوانية واضطهاد الأقليـات. وهل يستطيع أحد أن ينكر تربح الإسبان والإنجليز من القضاء على الهنود الحمر! ونستخلص من ذلك أن الجريمة مربحة بشرط واحد ألا يكون هناك إله...!

خلاصة الفصل الخامس

خلاصة هذا الفصل أن الحضارة الغربية والمعاصرة ورثت الاستغلال المنظـم مـن الإمبراطوريـة الرومانيـة الوثنيـة. وصـارعت المسيحية القادمة من الشرق ثم اعتنقت المسيحية بصورة مختلفة عن المصادر الأولى الشرقية، وقدمت المذهب الكاثوليكي المتأثر بما كانت عليه

الإمبراطورية الرومانية الوثنية.

ودخلت الإمبراطورية الرومانية بعد اعتناقها المسيحية في نزاعات دينية المظهر حتى القرن الخامس الميلادي عندما سقطت روما في أيدي القبائل الجرمانية البربرية التي اعتنقت المسيحية الرومانية، وتعصبت لها تعصبًا أدخل أوروبا في عصر من التخلف المادي والوجداني ستة قرون تالية، وأفرز التعصب والجهل فترة الحروب الصليبية لعدة قرون كانت أحد أسباب بواكير النهضة الأوروبية، كما أفرزت أخطر إصلاح ديني في العالم المسيحي في القرن السادس عشر. ومع ظهور بوادر الضعف في العالم الإسلامي في نهاية القرن الخامس عشر استغل الأوروبيون انتصاراتهم الدينية في شبه جزيرة أيبريا وتحريرها من الحكم الإسلامي، وانطلقوا مطاردين القوى الإسلامية بزعامة الإسبان والبرتغاليين الذين تمكنوا من إنشاء إمبراطوريتين في القارة الأمريكية المكتشفة في نهاية القرن الخامس عشر، وكانت روح المغامرة والانتقام هي السائدة مع رفع شعار التبشير بالمسيحية في العالم الجديد والقديم واستباحة الشعوب والثروات والأراضي الوثنية. وقد روج الأوروبيون فكرة أن المسلمين وثنيون شأنهم شأن الهنود الحمر؛ لتبرير العدوان على الشرق الإسلامي، ورغم أن أسس الحضارة الغربية قامت على منجزات الحضارة الإسلامية بعلومها وآدابها فإن التعصب والتشويه المبرر للعدوان أنكر ذلك.

وانتزعت أوروبا ريادة العالم في نهاية القرن السابع عشر، وحققت تقدمًا علميًّا وكشفيًّا أفرز عصر النهضة الصناعية الذي فتح الشهية لاستغلال الموارد وفتح الأسواق الشرقية بالقوة، حتى جاء قرن الاستعمار القرن التاسع عشر المليء بالعدوان والوحشية ضد الشعوب الأخرى، وظهر التنافس بين المعتدين حادًّا وقويًّا، ففي قرن

واحد هو القرن العشرين أسفر هذا التنافس المادي المحض عن 100 مليون قتيل في حربين عالميتين وعدة حروب محلية متتالية. مما أورث البشرية مزيدًا من القلق والاضطرابات النفسية والاحتكارات وتجارة السلاح والمخدرات والسيطرة على أسواق الدواء، مما جعل الشعوب الفقيرة تزداد فقرًا، والشعوب الغنية تزداد غنًى وقلقًا وعنفًا وبعدًا عن الأخلاق والتسامح والرضا عن النفس والغير. هذه الحصيلة الثقيلة من المشاكل انعكست على سعادة الإنسان المتفرد وجرّدته من حريته الشخصية وإرادته، ليصبح عبدًا للنظام والقانون والتكنولوجيا، وأبعد ما يكون عن الإنسان الذي يفعل الخير لأنه خير، ويرفض الشر لأنه شر.

قناة محبي الكتب على التليجرام

الفصل السادس: محاولة لحياة أفضل

في تاريخ الجماعة البشرية فترات اقتربت المجتمعات من الاتزان المادي والوجداني فحققت إنجازات كبيرة في زمن قصير، هذه الفترات وإن لم تكن كبيرة زمنيًّا إلا أنها مهدت لنمو قوى عظمى لزمن طويل، فما هي النماذج الموضحة لذلك؟

في التاريخ القديم في عهد الأسرة السابعة عشرة الفرعونية من الدولة الوسطى، ففي عام 1580 ق.م كان الهكسوس يحتلون الدلتا والصعيد الأوسط، وملوك الأسرة السابعة عشرة متحصنون في الصعيد الأعلى عند طيبة وما يليها جنوبًا في صمود ومقاومة نحو مائة عام لعدو غاصب نهب وسلب واعتدى على المقدسات الدينية المصرية؛ فاستجمع المصريون قواهم ومخزونهم الحضاري، وبدءوا حرب التحرير تحت قيادة الملك سقنن رع وزوجته الملكة تي، واستشهد الملك، وخلفه ابنه كاموس واستشهد أيضًا، وخلفه أخوه الأصغر أحمس الذي طرد الهكسوس وأسس إمبراطورية مصرية كبيرة في زمن قصير، فلماذا تمكّن المصريون في زمن قليل (1580 - 1550 ق.م) من هذا العمل الضخم؟ السبب كان الانتماء الديني والوجداني والقيم الأخلاقية المتأصلة في الشعب المصري والذي يشهد عليها إيمان المصري بالبعث والحساب والعمل الصالح، فيقول عند يوم حسابه:

(أ) لم ألحق ضررًا ما بأي إنسان.

(ب) ولم أعمل على إشقاء حيوان.

(ج) ولم أستبدل السيئة بالحسنة.

(د) ولم أعرف الشر ولم أعمله.

(هـ) ولم أقدم مصلحتي الخاصة على واجبي.

وفي إحدى المخمسات يقول: لم أتسبب في بكاء أحد (13) لم أحرض على قتل أحد (14) لم أتسبب في حرمان أحد من حقه.

هذه المخمسات في كتاب الموتى الفرعوني تعكس صورة إنسان مؤمن بربه مؤمن بمجتمعه، مؤمن بإنسانيته، حتى بالنسبة للحيوان، مؤمن بنظام مجتمعي فيه صالح عام وخاص وحقوق وواجبات.

هذه القيم الدينية والأخلاقية كانت المخزون الحضاري لحركة المقاومة والتحرير، وإذا أضفنا أن رأي الدولة كان هو رأس الديانة أيضًا فتكون القوة المادية والقوة الدينية مندمجة في تصالح وتعاون مع قدوة عظيمة (استشهاد القادة والملوك) والتضحية بالممتلكات، فقد تنازلت الملكة تي عن كل مجوهراتها لإعداد جيش التحرير، وشجعت الابن الأكبر على القتال بعد استشهاد أبيه حتى قُتل، فشجعت الأخ الأصغر على الاستمرار في التحرير حتى النصر وخلال ثلاثين عامًا وضعت الأسرة السابعة عشرة مصر على أعتاب الدولة الحديثة، الأسرة الثامنة عشرة لتصنع إمبراطورية عظيمة.

القواسم المشتركة في هذه الحالة هي: وحدة الدولة والدين - قيم أخلاقية راقية - حشد القوى المادية والدينية حشدًا كثيفًا في فترة قصيرة. نمو قوة عظمى استمرت زمنًا طويلًا تكرر هذا النموذج في عصر ظهور الإسلام على يد الجماعة الإسلامية الأولى، ظهرت الدعوة الإسلامية عام 610م وفاجأت الجماعة البشرية بالجديد في العالم الديني والوجداني، والجديد أيضًا في النظرة للعالم المادي، ووحد الدين والحياة من دون صراع أو هيمنة، وكان الطريق الذي

سارت عليه الجماعة الإسلامية الأولى سواء في أمورهم الداخلية أو صراعهم مع أهل الشرك هو طريق المبادئ والأخلاق.

قدمت الدعوة الإسلامية قواعد جديدة للبشرية كي تحيا أفضل، فالقيادة يجب أن تكون جماعية لا قيادة استبدادية، والتعايش السلمي مع المخالفين في العقيدة أو الرأي وتأجيل الفصل في الأمور الخلافية؛ ليفصل فيها الله يوم القيامة، وعلى الناس أن يتعايشوا ليتعارفوا. كما قدمت الدعوة الإسلامية الدين بصفته إيمانًا طوعيًّا وعبادة طوعية واختيارًا حرًّا يليق بالإنسان الحر المسئول عن اختياراته، قدمت الدعوة الإسلامية قبول الآخر وقبول التعددية الفكرية والدينية لخدمة المصالح المشتركة واحترام معتقدات الآخرين بشرط الإيمان بالإله الخالق والبعث والحساب.

قدمت الدعوة الإسلامية نموذجًا لتصالح الدين مع الحياة، تصالح بين الإيمان والعلم (التفكير والتأمل) كذلك تصالح البشر مع الطبيعة لا صراعًا معها بل كصديق نتأمله لا لإدراك عظمة الخالق فقط بل لنلاحظه ونفك أسراره بالبحث والاستنتاج، أي ملاحظة هادفة لصالح حياة الإنسان، ومن المعروف أن الملاحظة هي أساس المنهج العلمي التجريبي الحديث.

ونذكّر القارئ الكريم بأن الهدف دائمًا كان الاتزان بين العالم المادي والعالم الوجداني، هذه الازدواجية أو القطبية الثنائية تتجلى في أوضح صورة في نظرة الإسلام للطبيعة من تأمل وملاحظة، فالتأمل عملية وجدانية روحية تنتمي للعالم الوحداني، أما الملاحظة فتنتمي إلى العالم المادي حيث البحث ولتفكير العلمي. هذه المزاوجة لم تكن معروفة من قبل ولم يبرزها أحد بهذا الاتساق المقنع للإنسان.

ولبيان صور من التسامح أيضًا قبل فتح مكة صدور صحيفة المدينة

لترسي مبدأ المواطنة بين المسلمين واليهود، ولا بأس من ذكر واقعة عاطفية لأنها تحمل أيضًا قيمة تسامحية كبيرة وتقديرًا للحب، وذلك ما جاء في قصة العاص بن الربيع زوج السيدة زينب بنت رسول الله صل الله عليه وسلم، وكانا زوجين محبين جدًّا لبعضهما. ولكنه في صفوف مشركي مكة في واقعة بدر وتم أسره، فأرسلت زينب قلادة، هدية أمها السيدة خديجة لها عند زواجها؛ فداءً له وتأثر رسول الله صل الله عليه وسلم جدًّا وأعاده مع القلادة لابنته، وكان ذلك قبل تحريم زواج المسلمات بأهل الشرك، ثم أسر مرة أخرى مع قافلة لقريش بعد الهجرة وصودرت بضاعته وحُبس ولكنه هرب ليلًا وجاس في المدينة حتى اهتدى لمحل إقامة زوجته زينب، وكانت قد هاجرت من مكة إلى المدينة وحرمت عليه كزوجة، دخل عليها راجيًا إياها للتوسط لدى الرسول صل الله عليه وسلم؛ حيث إن بضاعته تخص أناسًا في مكة، فما كان منها في صلاة الفجر إلا أن صاحت بأعلى صوتها في وجود أبيها الرسول الكريم صل الله عليه وسلم تقول: أيها الناس إني أجرت العاص بن الربيع، دُهش السامعون، وهنا تجلت حكمة الرسول الكريم فقال للجماعة: **والله ما علمت إلا معكم الآن وأنتم تعلمون دوافع ابنتي، فإن أذنتم دون إكراه مني أن تقبلوا إجارتها للعاص بن الربيع، فافعلوا مشكورين، فردّوا عليه بضاعته.** وقال الرسول صل الله عليه وسلم لابنته: **أكرمي مثواه، ولكن اعلمي أنك محرمة عليه.**

غادر العاص المدينة من دون أن يسلم في قافلته، وردّ عوائد تجارته لأصحابها، ثم عاد لزوجته ليعلن إسلامه.

استمرت روح التسامح قوية في جيل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، تظهر في حوادث الناس اليومية في قصصهم في مأثورات عن نبيهم وعن ربه، مثل: غفران الله وشكره لزانية سقت كلبًا يلهث

من العطش. فإذا سرنا بالزمن نجد مؤشرات عن روح جديدة، ففي فتح الشام كان أبو عبيدة بن الجراح القائد العام لجيوش الفتح، وكانت إقامته في حجرة صغيرة ليس بها أي أثاث سوى فروة وقربة ماء وقطعة قماش معق بها كسرات من الخبز، والمدهش أنه استقبل فيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما حضر لاستلام مفاتيح مدينة القدس، إلى جانب مؤشرات إذابة الفوارق الطبقية والقبلية بين الناس؛ حيث يتفاضلون فقط بمكارم الأخلاق، ولا بأس من أن يقود أحد الجيوش من كان عبدًا أو أبوه أو يؤمر على مدينة أو منطقة، فمثلًا تأمر ابن أمِّ مكتوم الأعمى على المدينة في إحدى مرات غياب الرسول صل الله عليه وسلم عنها؛ وذلك لإعلاء قيمة الأفراد ذوي الاحتياجات الخاصة وإعطائهم فرص استثمار مواهبهم (رغم الإعاقة) وهذه نظرية حديثة جدًّا. وهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الأموي (99ه) يعقد مزادًا لبيع متاع وخيول لبعض أعضاء الأسرة الحاكمة لصالح بيت المال؛ لأنه رأى عدم شرعية امتلاكهم لها.

هذا بخلاف وقائع كثيرة اجتماعية وسياسية، تؤكد أن صدر الإسلام شهد فترة شديدة الحيوية عظيمة التوازن بين المادة والروح وسادت المجتمع كله روح الأمل والرضا عن النفس والغير والاطمئنان للمستقبل رغم مشقة العيش، وفي فترة قليلة جدًّا تم التمهيد لإقامة قوة عظمى استمرت طويلًا. هل تكرر هذا النموذج مرة أخرى؟ نقول: نعم بعد عدة قرون، وهي حالة المجتمع الإنجليزي في إنجلترا تحديدًا والثقافة الأنجلوسكسونية عامة بعد عصر النهضة وما تلاه من عصر الثورة الصناعية بدأ التغير والاختلاف الثقافي الإنجليزي عن نظيره في القارة الأوروبية حيث اتجهت نحو الديمقراطية مبكرًا وقبل القارة الأوروبية بزمن كبير منذ إعلان الماجناكارتا عام 1215م مع توحد الدولة والكنيسة على عكس العقلية الأوروبية التي قسمت

تاريخ أوروبا إلى قسمين لا ثالث لهما: عصر هيمنة الكنيسة على الدولة في العصور الوسطى، وعصر هيمنة الدولة على الكنيسة في عصر النهضة وما تلاه من صراع دموي ومحاكم تفتيش وإصلاح ديني في القرن الخامس عشر. كل هذا لم يحدث في إنجلترا؛ حيث كان الدين متوحدًا مع الدولة وليس خصمًا لها، وكانت إنجلترا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر دولة ثورية مؤمنة بالدين والديمقراطية معًا وبالعلم الحديث في حيوية عمت المجتمع كله. ثم جاءت ثورة كروميل ضد الاستبداد الملكي وأسس جمهورية عام 1653م حيث زادت حيوية الشعب الإنجليزي المتوحد دولة وكنيسة والمتحصن بالعلم والإيمان، وفي فترة قصيرة مهد لقوة عظمى استمرت لفترة طويلة في حالة تشبه ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، وقد أشار إلى هذا التشابه الفيلسوف المعاصر شبلنجر عندما قارن بين الزعيم كرمول وبين نبي الإسلام محمد صل الله عليه وسلم، فقال: كلاهما مزج الدين والدولة، أو المادة والروح، أو العقل والإيمان. هذا التصالح جنب إنجلترا ما عانته القارة الأوروبية من صراع حاد بين الكنيسة والدولة، كما قال أيضًا إن كليهما مهد في زمن قليل لقوة عظمى. استمرت طويلًا هذه الثنائية أو الازدواجية الإنجليزية في النظرة للحياة التي سبق أن أشرنا إليها كمؤشر للاستقرار المجتمعي، يمثل الاتزان بين العالم الوجداني والعالم المادي في مختلف العصور والحضارات الذي كان واضحًا وجليًّا في الثقافة والحضارة الإسلامية التي تأثر بها الفيلسوف روجرز بيكون (1220 - 1292م) وأسس فلسفته على قاعدتين هما: الاستنارة الباطنية الروحية (الدين)، والأخذ بالمنهج التجريبي المعتمد على الملاحظة، وقد كان روجرز بيكون من المعجبين جدًّا بكتاب الحيوان للجاحظ المليء بالملاحظات التجريبية في عالم الحيوان، كما كان متأثرًا بفلسفة ابن سينا، وكان يعتبره هو وأرسطو أعظم فلاسفة

البشرية، وكان روجرز مطلعًا على أعمال المفكرين الأندلسيين أمثال: ابن رشد وابن حزم. وقد سبق أن أشرنا إلى دور جامعة قرطبة وآلاف الأجانب الذين درسوا فيها، وكان كثير منهم من الإنجليز والألمان. والسمة الواضحة في الفلسفة الإنجليزية تأثر روجرز بيكون ومن تلاه مثل التجريبي الكبير جون لوك بالموازنة الدقيقة بين الإيمان والعلم بمنهجه التجريبي، أو كما تسميه دراستنا التي بين أيديكم العالم المادي والعالم الروحي، وهي فطرة الإنسان وطبيعة حياته المزدوجة القطبية وما من ثقافة ينبثق فيها نور هذا الاتزان إلا وينتج عنه الاستقرار والنمو السريع لكل قوى الدولة في وقت قصير، وهذا ما حدث في إنجلترا التي اعتنقت البروتستنتية وانطلقت في القرن السابع عشر مع كروموبل وأفكار روجرز؛ لتمهد لقوة عظمى تربعت على قمة الثورة الصناعية، وأسست إمبراطورية استمرت طويلًا.

الخاتمة

الدعوة الجديدة

هل يمكن في القرن الواحد والعشرين تكرار نموذج رابع مع اختلاف بسيط أن يكون نموذجًا عالميًّا؛ حيث أصبح العالم كأنه قرية صغيرة بفضل التقدم التكنولوجي في ثورة المعلومات ونقلها هل يمكن أن يصبح إنقاذ الإنسان المعاصر من براثن المادية التي أفقدته الكثير من الحرية والإرادة ككائن حي متفرد له شخصيته واختياراته وهو الأمر الطبيعي الملائم للإنسان وعكسه هو الشاذ؛ فالعودة للاتزان بين العالم المادي والعالم الوجداني سيؤثر إيجابيًّا في مظاهر ومؤشرات السعادة والرضا عن النفس والغير والاطمئنان للمستقبل.

البداية هي في خلق رأي عام عالمي بأن الإنسان المعاصر يعيش واقعًا متدنيًا من حيث الشعور بإنسانيته، وهو في حاجة للمعاونة للتخلص من ذلك الوضع، إلى جانب ذلك الإيمان بقدرته على تحسين هذا الواقع.. والبداية ربما تكون تبني مجموعة كبيرة لا تقل عن 100 من حكماء العالم: فلاسفة، أدباء، علماء اجتماع وعلماء نفس، وحقوقيون، وإعلاميون، ومؤرخون. يتم ترشيحهم من الجمعيات الأهلية في كل قُطر وفق معايير واضحة من الكفاءة والخبرة والسيرة الذاتية الناصعة، مع تفادي تكوين هذا المؤتمر العام لأسلوب المنظمات الدولية الحالية الذي يتم ترشيح الأعضاء ومنحهم مرتبات كبيرة جدًّا، الأمر الذي يجعل الحرص على الارتزاق أهم من المهام النبيلة.

والآن دعوتي لتكوين هذا المؤتمر العالمي من كل دول العالم خارج منظمات الأمم المتحدة، ينبثق من هذا المؤتمر العام لجنة لإعادة

كتابة التاريخ الإنساني بمعاونة جميع أقسام التاريخ من جامعات العالم ليكتبوا تاريخًا موضوعيًّا محايدًا؛ لأن معظم الانتكاسات ترجع للجهل واستغلاله، كذلك لجنة دينية تعلن أن جوهر جميع الأديان واحد طالما تعترف بالخالق وبمسئولية الإنسان عن أعماله أمامه. والسعي للوصول للإنسان المثالي الذي يفعل الخير لأنه خير، ويرفض الشر لأنه شر.

كما يتبنى المؤتمر العام: تشجيع الجمعيات الأهلية التي تعلي من مكارم الأخلاق، وتؤمن بتحرير الإنسان المعاصر من طغيان المادية وتشجع على العودة للطبيعة، وتدعو لنوع بسيط من التدريب للإنسان المعاصر في يوم إجازته؛ ليعيش في هذا اليوم حياة بسيطة في مأكله ومشربه ومتعه، ومحاولة التواصل مع الطبيعة المجردة الخالية من تدخل الإنسان، مثل الخروج والابتعاد عن المباني والطرق والعربات والقطارات والمولات، والخروج نحو شاطئ نهر أو ساحل بحر أو أطراف غابة أو حافة صحراء، شريطة أن يتجنب رؤية أو ملامسة أو استنشاق أي شيء تدخلت فيه يد إنسان؛ فإن ممارسة ذلك بعض الوقت في الإجازة الأسبوعية سيعيد تأهيله للبعد الإنساني الحقيقي، فتأمل مرور السحاب والقمر والنجوم وشمس الشروق والغروب، وحفيف الأشجار وأصوات الطيور، وحركات أمواج الأنهار الوديعة أو أمواج البحار وهي تضرب الشاطئ الرملي، كل ذلك سوف يساعد الإنسان للعودة لنفسه واتصاله بالطبيعة التي كاد أن ينساها في عالمه المادي عالم اللهث والقلق والخوف.

.. وختامًا

لقد كرّم الله تعالى الإنسان، ومقصدنا في هذه الدراسة أن يتمسك الإنسان المعاصر بهذا التكريم؛ لأنه جدير به. والطريق إلى ذلك هو

العودة لفطرته المزدوجة بين عالم مادي جاد وعالم وجداني راقٍ يعتز بإنسانيته وحريته وإرادته، ويسعى دائمًا لتحقيق الاتزان، وسوف يؤدي ذلك إلى الشعور بالسعادة والاطمئنان للمستقبل والرضا عن النفس والغير.

والله ولي التوفيق

لواء أ.ح.م معاش

عبد الحميد شرف

قناة محبي الكتب على التليجرام

السيرة الذاتية

اللواء أ.ح مهندس متقاعد

عبد الحميد علي محمود شرف

- **تاريخ الميلاد:** 1/10/1932م المنصورة ذ الدقهلية ذ جمهورية مصر العربية.

أولًا: المؤهلات الدراسية والعلمية:

- بكالوريوس هندسة قسم كهرباء موجات راديو عام 1956م.
- دبلوم دراسات عسكرية من الكلية الحربية المصرية عام 1956م.
- ماجستير هندسة كهربية (نظم السيرفو في الحواسب) من جامعة الإسكندرية عام 1965م.
- دبلوم أكاديمية القادة المهندسين من الاتحاد السوفيتي عام 1966م.
- ماجستير في العلوم العسكرية عام71 من كلية القادة والأركان.
- زمالة أكاديمية فرونز العسكرية بالاتحاد السوفيتي عام 1971/1972م.

- عضو المجلس الأعلى في نقابة المهندسين عام 1978م.
- زمالة أكاديمية ناصر العسكرية كلية الحرب العليا عام 1979/1980م.
- خدم بالقوات المسلحة من عام 1956م وحتى عام 1985م ومن أهم إنجازاته رفع كفاءة وزيادة فاعلية أعمال قتال قوات الدفاع الجوي مما ساعد في صمود حائط الصواريخ المصري في التصدي لطائرات العدو في حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر 73م، وأثناء خدمته بالقوات المسلحة شغل وظائف بحثية وقيادية على مستوى الدفاع الجوي وإدارة الحرب الإلكترونية وعلى مستوى القوات المسلحة المصرية.

ثانيًا: الترشيحات والجوائز العلمية:

- حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام 1982م.
- حصل علي وسام الجمهورية عام 1985م وذلك لدوره في حرب أكتوبر.
- تم اختياره ضمن مجموعة القادة العسكريين لتسجيل التاريخ الوثائقي لحرب أكتوبر المجيدة وكذلك عين في لجنة كتابة تاريخ الدفاع الجوي الفترة من 1993- 1996م.
- بعد تقاعده عمل بالبحث العلمي في مجال الطاقة المتجددة وفي مجال المياه والوقود اعتبارًا من عام 1990م، وحتى الآن وأنجز خلالها أربعة اختراعات تفيد مجالات عديدة كتوفير الوقود وغسيل الكلى ومعالجة ملوحة التربة بالأراضي الزراعية تحولت كلها إلى منتجات صناعية لخدمة المجتمع.
- تم ترشيحه لنيل جائزة الرأي العام الدولية عام 2000م.

- رُشح لنيل جائزة النهر العظيم التابعة لليونسكو عام 2001م.
- رُشح من قبل أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا المصرية لنيل جائزة أحسن إختراع في إفريقيا عام 2002م، ونيل جائزة سمو الأمير سلطان ابن عبد العزيز عام 2004م.
- حصل على عضوية مؤسسة Who is Who الأمريكية عام 2002م.

إصدارات المؤلف

اللواء أ.ح مهندس متقاعد

عبد الحميد علي محمود شرف

1 - 14 قرناً من الصراع بين الشرق والغرب "رؤية جديدة".
2 - الإنسان وفقدان الاتزان بين الروح والمادة.

قناة محبي الكتب على التليجرام